

الفصل الخامس

نماذج من مقالات العروة الوثقى وأخبارها

نقتطف فيما يلي نماذج من المقالات والأخبار المنشورة بجريدة (العروة الوثقى) وسنضع عناوين وهوامش لبعض هذه المقتطفات تيسيراً للتعريف بموضوعاتها وملابساتها.

الاستعمار فى مصر

فى العدد الأول الصادر فى ١٣ مارس سنة ١٨٨٤م ٥ جمادى الأولى سنة ١٣٠١هـ مقاله تحت عنوان (مصر) حملت فيها على سياسة بريطانيا الاستعمارية فى وادى النيل، ووصفت البؤس الذى عانته البلاد من الاحتلال وقالت ضمن ما قالت:

«تفجرت من أرض مصر ينابيع الثروة وعمت بقاعها ففاض خيرها على ما يجاورها من الأقطار الشرقية بل وصل مد نيلها إلى أراضي البلاد الغربية وتوارد إليها الغرباء وقصاد الكسب من كل مكان وما خاب لها قاصد ولا أخفق فيها سعى ساع فأثرى فى مغانيها الفقراء وعز بها الأذلاء وصارت قبله لآمال كثير من الغربيين ومحط رحال الراجين من الشرقيين، وكل وافد إليها يجد

أهلاً خيراً من أهله وسكناً خيراً من سكنه، وتكاثرت فيها العناصر الغريبة حتى كان الداخل إليها يخيل له أنه تحت برج بابل يوم تبلبت الألسن.

«وساد بها الأمن وعمت الراحة وضارعت في كل أحوالها نوع ما عليه الممالك الأوربية العظيمة، وكأن المتأمل في سيرها هذا يحكم حكماً ربما لم يكن بعيداً من الواقع أن عاصمتها لا بد أن تصير في وقت قريب أو بعيد كرسى مدنية لأعظم الممالك الشرقية بل كان ذلك أمراً مقررّاً في أنفوس جيرانها من سكان البلاد المتاخمة لها، وهو أملهم الفرد كلما ألم خطب أو عرض خطر. غير أن الأيام كأنها حسدتها على ما منحته، فعثر العاقل وفرط المالك وأعثر المعجب وتهور الغبي وخار الأفين^(١). فقرب البعيد وبعد القريب، ونزل بمصر ما لم يكن له أثر إلا في حواشى طوامير^(٢) الأوهام ولا حول ولا قوة إلا بالله.

«ألحمت إدارة الحكومة بما ليس من نسيج سداها، وانتقضت منها أصول على وجه غير مألوف، ففتحت للدسائس أبواب. وانساب بين طبقات الناس دهاة سياسة وطلاب غايات فتفرق اتصال وتقطعت أوصال فضعفت السلطة الوازنة ونبذت الطاعة والتهبت نيران الفتنة.

(١) أفن أفنا: ضعف رأيه فهو أفين ومأفون.

(٢) الطومار: الصحيفة وجمعها طوامير.

«قضاء حل بتلك البلاد فاحتاجت في إعادة شأنها الأول إلى رأى قويم وعزم ثابت ووازع قوى تدين لسلطوته النفوس وإن من نوى الحقوق فيها من يجمع هذه الأوصاف وله من القلوب المكانة العليا، وكان يسهل عليه القيام بما يعهد إليه لكن تحكم طمع وأخطأ ظن فتخلفت النتيجة واشتدت الحاجة.

«أشفت دولة الإنجليز على طريق الهند كما يقال أو ظنت أن آن التقدم بعض خطوات قد آن، فرأت أن إعادة الأمن وتثبيت الراحة فى مصر من فرائض نمتها، فكان التحريق والتدمير والقتل والشنق والحبس والإبعاد والتغريم وما شاكل ذلك مما لا حاجة لبيانها، وعم بعض أنواع الهون حتى لم يبق ممن يعرف اسمه أحد إلا مسه ضرمة^(١) ما خلا أشخاصًا قلائل، وهذه المرهبات على ما بها من القوة لم تبلغ الغرض من تأمين طريق الهند لإشرافه على الخطر من وجه آخر ولم يأت بما كان يؤمل منها لنظام البلاد.

«أليست المالية هى مرمى أنظار دول أوروبا وما وضع نظام فى البلاد ولا أحدث تغيير بمشورتهم إلا لوقاية الخزينة من العجز عن أداء ما يتعلق بها من الحقوق الأوربية، اليوم رزئت بالنقص فى الإيراد وحملت من تعويضات مقالف الحرب^(٢) أربعة ملايين

(١) الضرم: الذهب.

(٢) هى التعويضات التى ألزمت بها مصر عقب الاحتلال البريطانى بدعوى أنها مقابل الخسائر والأضرار التى لحقت بالجاليات الأجنبية فى حوادث سنة ١٨٨٢

من الجنيھات ورمیت بنفقات جيش الحلول^(١) وحرب السودان ومصاريف أخلائه، وما یضاف إلى كل هذا مما یظهره المستقبل، فاختلفت الموازين وبطل قانون الجبايات وأى مصیبة على المالیه أعظم من نوازلها الحاضرة.

«عقد العزم على إلغاء الجيش الوطنى وهو قوة البلاد وبه فخارها وكأنه لم توجد وسيلة لتنظیم عسكر مصرى وقصر الجهد عن مجارة محمد على وإبراهيم اللذين دوخا كثيراً من الأقطار بجنود مصریه. «وأأسفا على حالة الأهالی بعد هذا، حکم من لا دافع لحکمه بطرد آلاف من الوطنیین الموظفين فى دوائر الحكومة وما منهم أحد إلا ویتبعه عائلة وأولاد ولا قوت لهم إلا من مرتب عائلم وما مرن على عمل لكسب سوى ما نشأ فیہ من خدمة الحكومة، ألم یحس هؤلاء ضر الفقر ألم یعضهم ناب الجوع ألم یهتك مستورهم؟ ألم یضق ذراعهم ألم یصبحوا کساء بسرابیل الکآبة عراة من أکسیة المسرة؟ إن لم یکن کل هذا فقد کان جلّه وإن صدی أنینهم یتلى فى صفحات الجرائد الوطنیه العربیه والأفرنجیه وسیتبع السابقین منهم اللاحقون حتى لا یجد وطنى فى البلاد من المهن إلا ما لا

وخاصة مذبحه الإسکندریة فى ١٠ یونیه سنة ١٨٨٢م وضرب الإسکندریة بقنابل الأسطول البريطانى فى «یولیة» من ذلك العام. ومع أن المسئول عن هذه الخسائر الحكومة البريطانیة لأنها هی التى أحدثتها. ووقعت فیها. فإن مصر قد احتملت عواقبها وتعويضاتها الجسیمة. وقد بلغت أربعة ملايين وربع مليون جنيھ. (١) جيش الاحتلال.

يليق بالإنجليزى تعاطيه من سفاسف الأمور كما هو فى البلاد الهندية.

«اضطرب ميزان السلطة العامة لتعاكس قواها المختلفة فاشتبه الأمر على العمال وظنوا أن لا تبعة عليهم فيما يعملون فانطلق ما غل من أيديهم وحكموا أهواءهم فى أداء وظائفهم فخطبوا وخلطوا، فعمت السجون بأعيان الرعية ورفعت أذنان الكرابيج لتشريح أبدانهم واستعملت آلات التعذيب وامتدت مخالب الجور لتجريدهم من بقايا أموالهم وثمرات كسبهم وحدث نوع من الحكم المطلق عزيز المثال بعث عليهم عذاباً من فوقهم أو من تحت أرجلهم ولبسوا شيعاً وأذيق بعضهم بأس بعض وما الله بغافل عما يعمل الظالمون.

«غلقت أبواب العمل من وجوهه الرسمية فى الإدارات وتعطلت أشغال المحاكم وشخصت الأبصار لعاقبة هذا التنازع بين القوى الحاكمة، فاتسع نطاق الفوضى وارتفع حجاب المنعة وسرى التهاون إلى الدوائر العليا وعاد الأمر لقوة الساعد وكثرة الأعوان فعاثت اللصوص وكثر قطع الطرق فى كل ناحية وارتفعت الأصوات بالشكوى منهم فى عموم الجرائد الوطنية، فوقفت حركة الأعمال العمومية، وبدت للناس شئون عدلت بهم عن ضرورات معاشهم، وامتنع المدينون من أداء ما عليهم لدائنيهم من التجار والربوبيين فقبض المقرضون أيديهم واحتكروا نقودهم لفقد ثقتهم وإشفاقهم من

الضياع على رءوس أموالهم وإن أصيبوا بالحرمان من الربح وابتلوا بالخسارة فى رأس المال من قبيل آخر واشتدت الحاجة بالفلاحين إلى ما يعوض عليهم ماشية الحراثة بعدما اغتالها التيفوس وإلى ما يجددون أو يصلحون به آلاتهم الزراعية ويستعينون به على نجاحها حسب العادة التى ألفوها، فعميت عليهم السبل وضائق بهم المسالك ولم يجدوا لسد حاجتهم سبيلا، ففسدت الزراعة وانتقضت ثمراتها وانحطت الحاصلات لارتباك الأحوال إلى حد ما كان لا يسمع إلا فى القصص وروايات القدماء. ومطالب الحكومة فى ضرائبها ورسمها على حالها الأول مع الأغذاذ فى اقتضاؤها، فعم العسر وأحاط الضنك وتقوضت آلاف من البيوت التجارية وأتربت أيدي ملايين من عمال الصناعة وأعدم المزارعون قاطبة إلا نزر يسير من حفظة الكنوز أو المستأثرين بأموال الكافة نهباً وسلباً، باع الفلاح أثاث بيته وما أبقاها التيفوس من عاملة أرضه بعدما ذهبت الحاجة بحلى حرمه وبناته ليؤدى ما عليه لحكومته ولم ينل من غضاره ما يقوم بحفظ حياته وعاد إلى الفطرة الأولى يقتات بأقوات البهائم ويسرح مسارح الحيوانات إلا قليلا منهم الله يعلمهم.

«وزاد الويل بمحق الحرية الشخصية والأخذ بالشبه وإن ضعفت واتباع بواطل التهم وإن بعدت أو استحالت حتى أخذ الفرع من القلوب مأخذه وبلغ منها مبلغه، فلا ترى ماراً بطريق إلا وهو يلتفت وراءه لينظر هل تعلق بأثوابه شرطى يقوده إلى السجن أو

يقتضى منه فداً ، وكل معروف الاسم من المصريين ينتظر فى كل خطوة عثرة وفى كل نهضة سقطة ، وله من كل شاخص دهشة ، ومن كل طارق لبابه غشية ، أى شقاء ينتظره الحى فى حياته أشنع من هذا؟.

«هذا ما تنشق له المرائر من أحوال سكان القطر المصرى ، هذا بعض ما يضيق به الصدر وتنقبض له الأنفس مما رزئوا به بعدما تكفل أحباؤهم الألوان بالدفاع عنهم وتخليصهم من الفوضى السابقة ، هذه طلائع الإصلاح المبشر به من زمان بعيد على السنة رسله ، أصبح الأهالى حيارى فى أمورهم تائهين عن رشادهم ، لا يعلمون ماذا يحل بهم ، يذكرون من أحوالهم السابقة ما كانت الدول الأوروبية تسمية ضيقاً وعناءً وتمنيهم بالإنقاذ منه فيحنون إليه ويودون لو رجعوا إليه ويحسبونه غاية سعادتهم بعد هذه الحالة التى هم فيها .

«أبعد هذا يصح لمصرى أن يظن أن تلك الرزايا التى حلت بلاده من نحو عشرين شهراً ، كانت مقدمة لإصلاحها وتنظيم شئونها ، نعم يمكن أن يخطر بالبال أنها تمهيد لعمل صناعى فى الأراضى المصرية كتقويم طرقها وإقامة جسورها وتكثير جداولها وتقوية مواد الخصب فيها حتى تعود بعد مدة جنة من جنات الدنيا أو روضة من رياض الآخرة ، أما الأهالى فليسوا بموضع النظر فإنهم إن هلكوا ورث الأرض بعدهم قوم آخرون .

«فإن لم يكن هذا فليكن تمام الإصلاح الذى لا يملئه الخاطر فى وقتنا الحاضر ولا يكفى للبدء فيه سنون معدودة على قياس الإصلاح المنتظر فى بلاد بنجاب (من الممالك الهندية) فإن الدولة التى تولت إصلاح الشئون المصرية فى هذه الأيام دخلت بلاد بنجاب بهذه الحجة واستولت عليها من مدة أربعين سنة ولم تزل إلى الآن حكومتها عسكرية ولم يشرع فيها بتنظيم مدنى، فلينتظر إخواننا المصريون فإننا معهم من المنتظرين».

إنجلترا والمسألة المصرية

وفى عدد ٢٠ مارس سنة ١٨٨٤م كتبت مقالة عن التواء السياسية البريطانية، ختمتها بأن الحل الوحيد للمسألة المصرية لا يكون إلا على أيدي أهلها، قالت:

«إن المسألة المصرية صبغت فى إنجلترا عدة صبغات من يوم نشأتها، وكلما عرضت على العقول فى لون خيل لها أنه أجود ما فى الدن، حتى إذا مضى عليه زمان خفى وأعقبه لون جديد وهى فى انتقالاتها هذه لا تزدد إلا إشكالا ولا تزيد إنجلترا فى إنهاؤها إلا ارتباكاً.

«كان يود مستر (غلاستون)^(١) أن ينهج فى سياسته منهج سلفائه من الإنجليز يحبو إلى مقصده بالأناة والتؤدة ويلتوى فى

(١) رئيس الوزراء البريطانى الذى وقع الاحتلال فى عهده.

مسيره إلى معاطف متخالفة ويرى أن سلوك الجادة مما لا تقتضيه الحكمة ولا يسوغه الحذق حتى يبلغ الغاية ويقطع الخلال (الطريق بين الرمال) ولا يظهر له أثر يقتفى أو كان كما يزعمون أو كما يدعى ونادى به على عهد (بيكونسفيلد) من أنه لا يميل إلى الفتوحات وهمه البعد بإنجلترا عن المدخلات في الأمور الأجنبية بالقوة الحربية، إلا أن الحوادث المصرية أُلجأته إلى العدول عن مشربه والتطور بغير طوره، فتضاربت آراؤه وتردد في أعماله وسار سيرة المتخبط ونشأ من طمعه في السياسة وتوعر السبل على حكومته في بلوغ ما تريد وحدث النزاع بينه وبين بقية الوزراء فيما يجب اتباعه من بعد، وهو الآن في حيرة بين التمسك بمذهبه السياسى والاستقالة من المنصب وبين الانفلات منه والتعرض للوم العقلاء والسقوط من منزلته في قلوب أحزابه، وهذه الحيرة مهدت لمعارضيه من الحزب المحافظ طريقا للسعى في إسقاطه من مكانته السياسية وإهباطه من كرسى الوزارة.

«الذى أباح لمستر (غلادستون) أن يركب غير طريقه ويتداخل في مصر بقوة السلاح ما زعمه من احتياج تلك البلاد إلى إقرار الراحة وتخليصها من خلل الفوضى، وعلى إنجلترا أن تتولى إغايتها مما وقعت فيه فمد يده لوضع قواعد العدالة وتخليص الحكومة من الضعف وإعادة الأمن إلى البلاد، وكان يظن أن هذا المطلوب يتم بهدم طوابى إسكندرية والحلول في ثكن القاهرة،

فيكون قد كسب أجراً أو نال ملكاً جديداً أو حفظ مصلحة مهمة بأعمال خفيفة ونفقات قليلة وكلمات غير طويلة، ولكن من الأسف لم يساعده التوفيق على نوال البغية.

«تتابعت الفتن وعلا لياقاً^(١) حتى لذعه فنبهه لما لم يخطر له على بال فاضطر لسوق العساكر ومداومة الحروب، ومع هذا لم تؤيد الحكومة التي انتصر لها ولم يكف محمد أحمد (المهدي) عن دعوته ولم يهن عزم عثمان دقنه بهذه الصدمات المتتالية وأجمعت الجرائد على أنه نادى بالحرب الدينية وهو يجمع متفرقة العرب ليزيدها إلى قبيلته ويهاجم الإنجليز مرة ثالثة.

«فهذه المصاعب شوشت أفكار البرلمان وحركت الخواطر على الوزارة الغلادستونية وتخوف رئيس الوزراء من عواقب المداورات في المسائل المصرية، فتأخر عن حضور الجلسات من مدة أيام وقام ناظر الجهادية مقامه في التعبير عن أفكار الوزارة، وفهم من بعض خطابات أن في نية الحكومة أن تحفظ الثغور المصرية بعساكرها وأن تحل في شرقي السودان وأن تتولى إدارة الحكومة المصرية، فقامت الحجة بكلامه هذا لحزب المحافظين ووبخوا الحكومة على ضعفها السابق والتجائها للعدول عن سياستها في هذه الأوقات ولم يكن من رأى غلادستون أن تصرح الحكومة بمقاصدها وتظهر مشروعها بوجه جلي، ووقع الخلاف بينه وبين ناظر الجهادية

(١) اللياق: شعلة النار.

وكثير من أعضاء الوزارة على جملة مواضيع فى المسألة المصرية، وزاد الخلاف شدة ميل غلادستون لمرضاة الأيرلنديين وتجافى بقية الوزراء عن رغبته، وثبت الرئيس فى آرائه وهو يفضل الاستعفاء على التساهل فى شىء منها، ومن هذا غلب على الظن أنه سيحصل انقلاب فى الوزارة أو فض البرلمان وأكدت قرب ذلك جريدة التيمس وجريدة الديلى نيوز وهى نصف رسمية وجاءت الأخبار الأخيرة متفقة على أن وزارة غلادستون فى خطر.

«فإن انقلبت الوزارة الإنجليزية وخلفتها أخرى من أى حزب كان فما عساها تفعل لحل المسألة المصرية والتخلص من الورطة؟ أقبل الصيف وصعب على عساكر الإنجليز أن تأتى بحركات عسكرية فى أطراف السودان الشرقية مدة أشهر، ويتعذر حفظ المواصلات بين سواكن وبربر والخرطوم، فإن طلبوا عساكر هندية كما أنبأ به التليغراف انكشف للهنديين بتكرار طلب العساكر من الهند ضعف القوة البريطانية واجتروا على حامية الهند وهناك الهول الأكبر، فى هذه المدة وهى غير قصيرة يتيسر لمحمد أحمد (المهدى) ودعاته أن يجمعوا قواهم وينالوا من المنعة ما يتعسر على عساكر الهند مقاومته بل هم الآن على القرب مما نقول، ففى الأخبار الصحيحة أن حالة النيل الأعلى لا ترضى الحكومة الإنجليزية، والبلاد المجاورة للخرطوم فى ثوران شديد وقد انقطع الأمل من فتح الطريق بين بربر وعاصمة النوبة ومحمد أحمد مهتم من نحو شهر بجمع قوة عظيمة يساعده على تنظيمها ضباط من

أركان الحرب فيهم اثنا عشر أوريبيا وستون ضابطا مصرياً نجوا من
عساكر (هكس)^(١)، ذكرت جميع ذلك جريدة الديلى نيوز واعترف
مستشار خارجية إنجلترا أن المواصله بين شندى والخرطوم منقطعة
ولم يصله خبر عن جوردون من حادى عشر هذا الشهر (مارس سنة
١٨٨٤م) فإذا ترك هذا الخطب الجلل للقوة الإنجليزية فلا نظنه
ألا يصعد جدار الهند ويذهب بكل ما يعبر بالمصالح الأوربية فى
مصر (وليكن كذلك).

«ولا نظن أن دول أوربا تسمح بضياح مصالحها فى الأقطار
المصرية خصوصا بعض الدول التى كانت تسابق إنجلترا فى
وادى النيل وانحط مقامها فيه بالتدخل الإنجليزي الذى ليست له
حدود معروفة ولا غايات معلومة، وإلى هذا تشير جريدة (الطان)
الفرنساوية الوزارية حيث تقول: إن إنجلترا لا يمكنها أن تضع
مصر تحت حمايتها حتى تناقش الحساب بين يدى أوربا وتنوه به
جريدة (سان بطرسبورج) حيث تقول إن روسيا ليس فى عزمها أن
تفتتح بعمل فى مصر فإن إنجلترا اعترفت فى جميع الأوقات بأن
المسائل المصرية لها هيئة دولية وبناء على هذا لا يمكن القطع فى
شئ منها إلا باتفاق أوربا.

«هذا إذا تمكنت إنجلترا أن تأخذ على نفسها إطفاء الفتنة وإجهاض
الثورات واستطاعت القيام بما تكتب على ذاتها، ففى نهايته تطالب

(١) الجنرال هكس قائد إنجليزى كان يقود جيشا من المصريين هزم فى موقعه ه
نوفمبر سنة ١٨٨٢م أمام قوات المهدي.

عند أوروبا بما تقتضيه مصلحة كل دولة منها، فإن عجزت كما هو الغالب على الظن أو طال عليها الزمان وهى بين ظفر وانهزام ولا تتجاوز فى حركاتها العسكرية شواطئ البحر فلا ريب أن القلق يستفز الدول لطلب وسائل أخرى سوى ما تهيئه دولة إنجلترا، وأنا نرى وسيحكم الزمان لنا إن شاء الله أن حفظ حقوق الأوروبيين وضبط البلاد المصرية وإخماد نيران الفتنة فيها لا يتم إلا على أيدي أهلها. ويفعل الله ما يشاء».

عبث الإنجليز بالأمن فى مصر وقالت أيضا فى عدد ٢٠ مارس سنة ١٨٨٤م

(إنا لله وإنا إليه راجعون لا حول ولا قوة إلا بالله العلى العظيم. ورد تلغراف من القاهرة إلى جريدة (استاندر) يفيد أن السجون ضاقت بالمسجونين حتى اضطرت الحكومة (المصرية أو الإنجليزية) إلى إطلاق ألف ومائتين منهم من أرباب الجنايات الخفيفة، وسبب هذه البلية عدم قدرة المجالس على محاكمة جميع المتهمين، لهذا تذوب المقل بكاء وتفتت الأكباد حزناً^(١)).

(١) فى مارس سنة ١٨٨٤م استقال محمد ثابت باشا وزير الداخلية فى وزارة نوبار احتجاجا على تعيين المستر كليفورد لويد Clifford Lloyd وكيلا لوزارة الداخلية وتدخله المستمر فى شئون الوزارة، فقبلت استقالته وتولى نوبار نفسه وزارة الداخلية، وظل كليفورد لويد يتدخل فى كل صغيرة وكبيرة من شئونها، ومن أمثلة تدخله أنه فى شهر مارس سنة ١٨٨٤م أصدر أمره بالإفراج عن عدد كبير من السجناء

ماضى الأمة وحاضرها وعلاج عللها

وفى عدد ٢٧ مارس ١٨٨٤م، نشرت مقالة عنوانها (سنة الله فى الذين خلوا من قبل ولن تجد لسنة الله تبديلا)، أوضحت فيها أن علاج أمراض الأمة مسألة تشعبت فيها الآراء، فمن قائل إن الجرائد علاج ناجع فى إصلاح شئونها، وأظهرت الشك فى كفاية الصحف لهذه المهمة، وكيف أن كثيراً من المتعلمين اتجهوا إلى محاكاة الغربيين فى أساليب الحياة فازدادت تبعية البلاد للمصنوعات الأجنبية، وانتهت المقالة إلى أن الواجب على الأمم الشرقية أن تتبع أصول دينها، ففى اتباعها ما يعيد إليها المجد والمنعة ويرقى بأخلاقها وينهض بحضارتها ويوحد صفوفها، قالت:

«أرأيت أمة من الأمم لم تكن شيئاً مذكوراً، ثم انشق عنها بماء العدم، فإذا هى بحمية كل واحد منها كون بديع النظام، قوى الأركان، شديد البنیان. عليها سياج من شدة البأس، ويحيطها سور من منعة الهمم، تخدم فى ساحاتها عاصفات النوازل، وتنحل بأيدي مديريها عقد المشاكل، نمت فيها أفنان العزة، بعد ما نبتت أصولها، ورسخت جذورها، وامتمد لها السلطان على البعيد عنها

فى السجون المختلفة بالمديريات كانوا تحت المحكمة وكثير منهم من كبار الأثقياء وتعللت الوزارة بأن السجون ضاقت بالمسجونين، وكثرت حوادث السطو والسرقات والقتل. وإلى هذه الواقعة أشارت جريدة العروة الوثقى فى عدد ٢٠ مارس سنة ١٨٨٤م السالف الذكر.

والدانى إليها، ونفذت منها الشوكة، وعلت لها الكلمة، وكملت القوة، فاستغلت آدابها على الآداب، وسادت أخلاقها وعاداتها على ما كان من ذلك لسابقيها ومعاصريها، وأحست مشاعر سواها من الأمم بأن لا سعادة إلا فى انتهاج منهجها، وورود شريعته، وصارت وهى قليلة العدد كثيرة الساحات، كأنها للعالم روح مدبر وهو لها بدن عامل.

«وبعد هذا كله وهى بناؤها، وانتشر منظومها، وتفرقت فيها الأهواء، وانشقت العصا، وتبدد ما كان مجتمعاً، وانحل ما كان منعقداً، وانفصمت عرى التعاون، وانقطعت روابط التعاضد، وانصرفت عزائم أفرادها عما يحفظ وجودها، ودار كل فى محيط شخسه المحدود بنهايات بدنه، لا يلمح فى منظره بارقة من حقوقها الكلية والجزئية، وهو فى غيبة عن أن ضروريات حاجته لا تنال إلا على أيدي الملتحمين معه بلحمة الأمة، وأنه أحوج إلى شد عضدهم من تقوية ساعده، وإلى توفير خيرهم من تنمية رزقه، وكأنه بهذه الغيبة فى سبات يخيليه الناظر إليه صحوًا، وذبول يظنه المغرور زهوًا، وأخذ القنوط بآمال أولئك المدهوشين فأبادها، وحدثت فيهم قناعة البهم، والرضا بكل حال، ولئن تنبه خاطر للحق فى خيال أحدهم، أو استفزه داع من قلبه إلى ما يكسب ملته شرفاً، أو يعيد لها مجداً، عده هوساً وهذياناً، أصيب من ضعف فى المزاج، أو خلل فى البنية، أو حسب أنه لو أجاب داعى

الذمة لعاد عليه بالوبال، وأورده موارد الهلكة، أو لصار من أقرب الأسباب لزوال نعمته، ونكد معيشتة، ويحكم لنفسه سلاسل من الجبن وأغلالات من اليأس، فتغل يدها عن العمل، وتقف قدماه عن السعى، ويحس بعد ذلك بغاية العجز عن كل ما فيه خيره وصلاحة، ويقصر نظره عن درك ما أتى أسلافه من قبله، وتجمد قريحته عن فهم ما قام به أولئك الآباء الذين تركوه خليفة على ما كسبوا، وقيما على ما أورثوه لأعقابهم، ويبلغ هذا المرض من الأمة حدا يشرف بها على الهلاك، ويطرحها على فراش الموت فريسة لكل عاد، وطعمة لكل طاعم.

«نعم رأيت كثيرا من الأمم لم تكن ثم كانت، وارتفعت ثم انحطت، وقويت ثم ضعفت وعزت ثم ذلت وصحت ثم مرضت، ولكن أليس لكل عله دواء؟ بلى.

وأسفا ما أصعب الدواء، وما أعز الدواء، وما أقل العارفين بطرق العلاج!.

«كيف يمكن جمع الكلمة بعد افتراقها، وهى لم تفترق إلا لأن كلاً عكف على شأنه؟ أستغفر الله، لو كان له شأن يعكف عليه لما انفصل عن أخيه وهو أشد أعضائه اتصالا به، ولكنه صرف لشئون غيره وهو يظنها من شئون نفسه، نعم ربما التفتت إلى كل ما هو فى فطرة كل حى من ملاحظة حفظ حياته بمادة غذائه، وهو لا يدري من أى وجه يحصلها، ولا بأية طريقة يكون فى أمن عليها؟ كيف

تبعث الهمم بعد موتها، وما ماتت إلا بعد ما سكنت زمانا غير قصير إلى ما ليس من معاليها؟ هلى من السهل رد الثأفة إلى الصراط المستقيم؟ وهو يعتقد أن الفوز فى سلوك سواه، خصوصا بعدما استدير المقصد، وفى كل خطوة يظن أنه على مقربة من الخطوة؟ كيف يمكن تنبيه المستغرق فى منامه المبتهج بأحلامه، وفى أذنه وقر وفى ملامسة خدر؟..

«هل من صيحة تفرع قلوب الآحاد المتفرقة من أمة عظيمة تتباعد أنحاؤها. وتتناهى أطرفها، وتتباين عاداتها وطبائعها؟ هل من نبأ تجمع أهواءها المتفرقة وتوحد آراءها المتخالفة، بعد ما تراسم جهل وران غين، وخيل للعقول أن كل قريب بعيد، وكل سهل وعر؟ أيم الله إنه لشئ عسير يعيا فى علاجه النطاسى، ويحار فيه الحكيم البصير، هل يمكن تعيين الدواء إلا بعد الوقوف على أصل الداء وأسبابه الأولى والعوارض التى طرأت عليه؟ إن كان المرض فى أمة فكيف الوصول إلى علله وأسبابه إلا بعد معرفة عمرها وما اعتراها فيه من تنقل الأحوال وتنوع الأطوار؟ أيمكن لطبيب يعالج شخصا بعينه أن يختار له نوعا من العلاج قبل أن يعرف ما عرض له من قبل فى حياته ليكون على بينة من حقيقة المرض؟ وإلا فإن كثيرا من الأمراض تتولد جراثيمها فى طور من أطوار العمر ثم لا تظهر إلا فى طور آخر، لتغلب قوة الطبيعة على مادة المرض فلا يبدو أثرها.

«كلا، إنه ليصعب على الطبيب الماهر تشخيص واحد سنو عمره محدودة، وعوارض حياته محصورة، فكيف بمن يريد مداواة علة طويلة الأجل وافرة العدد؟ لهذا يندر في أجيال وجود بعض رجال يقومون بإحياء أمة أو إرجاع شرفها ومجدها إليها، وإن كان المتشبهون بهم كثيرين، وكما أن المتطبب القاصر في الأمراض البدنية لايزيد علاجه المرض إلا شدة، لولا مساعدة الاتفاق والصدفة، بل ربما يقضى بالمريض إلى الموت- كذلك يكون حال الذين يقومون بتعديل أخلاق الأمم على غير خبرة تامة بشأنها وموجب اعتلالها، ووجوده العلة فيها وأنواعها، وما يكنف ذلك من العادات، وما يوجد في أفرادها من المذاهب والاعتقادات، وحوادثها المتتالية على اختلاف مواقعها من الأرض، ومكانتها الأولى من الرفعة، ودرجتها الحالية من الضعة، وتدرجها فيما بين المنزلتين. فإن أخطأ طالب إصلاحها في اكتناه شئ مما ذكرنا تحول الدواء دواء والوجود فناء، فمن له حظ من الكمال الإنساني، ولم يطمس من قلبه موضع الإلهام الإلهي، لا يجروء على القيام بما يسمونه تربية الأمم وإصلاح ما فسد منها وهو يحس من نفسه أدنى قصور في أداء هذا الأمر العظيم علماً أو عملاً. نعم يكون ذلك من محبى الفخفخة الباطلة وطلاب العيش في ظل وظائف ليسوا من حقوقها في شئ.

«ظن القوم في هذه الأزمان أن أمراض الأمم تعالج بنشر الجرائد، وأنها تكفل إنهاض الهمم، وتنبيه الأفكار، وتقويم الأخلاق - كيف

يصدق هذا الظن وأنا لو فرضنا أن كتاب الجرائد لا يقصدون بما يكتبون إلا نجاح الأمم مع التنزه عن الأغراض؟ فبعدما عم الذهول واستولت الدهشة على العقول، وقل القارئون والكتابون - لا نجد لها قارئاً، ولئن وجدت القارئ فقلما تجد الفاهم، والفاهم قد يحمل ما يجده على غير ما يراد منه، بضيق في التصور، أو ميل مع الهوى، فلا يكون منه إلا سوء التأثير فيشبهه غذاء لا يلائم الطبع فيزيد الضرر أضعافاً، على أن الهمة إذا كانت في درك الهبوط، فمن يستطيع تفهيمها فائدة الجرائد حتى تتجده منها الرغبات لاستطلاع ما فيها، مع قصر المدة، وتدفق سيول الحوادث إن هذا وحقك عزيز.

«ويظن قوم آخرون أن الأمة المنبعثة في أقطار واسعة من الأرض مع تفرق أهوائها وإخلاؤها إلى ما دون رتبها بدرجات لا تحصر، ورضاها بالدون من العيش، والتماس الشرف بالانتماء لمن ليس من جنسها، لا مشربها، بل لمن كان خاضعاً لسيادتها، راضخاً لأحكامها، مع هذا كله يتم شفاؤها من هذه الأمراض القاتلة بإنشاء المدارس العمومية دفعة واحدة في كل بقعة من بقاعها، وتكون على الطرز الجديدة المعروف بأوروبا، حتى تعم المعارف جميع الأفراد في زمن قريب، ومتى عمت المعارف كملت الأخلاق، واتحدت الكلمة، واجتمعت القوة، وما أبعد ما يظنون؟ فإن هذا العمل العظيم إنما يقوم به سلطان قوى قاهر، يحمل الأمانة على ماتكره أزمانا

حتى تذوق لذته وتجنّى ثمرته، ثم يكون ميلها الصادق من بعد نائباً عن سلطته فى تنفيذه ما أراد من خيرها ويلزم له ثروة وافرة تفى بنفقات تلك المدارس وهى كثيرة، وموضوع كلامنا فى الضعف ودوائه، فهل مع الضعف سلطة تقهر، وثروة تغنى؟ ولو كان للأمة هذان لما عدت من الساقطين.

«فإن قالوا: يمكن التدريج مع الاستمرار والثبات، وافقناهم على الإمكان لولا ما يكون من طمع الأقوياء حتى لا يدعون لهم سبيلاً لأن يستنشقوا نسيم القوة، فأين الزمان لنجاح تلك الوسائل البطيئة الأثر؟...»

على أنا لو فرضنا مسأله الدهر، ومنحت الأمة مدة من الزمان تكفى لبث تلك العلوم فى بعض الأفراد، والاستزادة منها شيئاً فشيئاً، فهل يصح الحكم بأن هذا التدريج يفيد فائدة جوهرية، وأن ما يصيبه البعض منها يهيئ للكمال اللائق به، ويمكنه من القيام بإرشاد الباقي من أبناء أمته؟.

واعجبا كيف يكون هذا وإن الأمة فى بعد عن معرفة تلك العلوم الغريبة عنها؟! وكيف بذرت بذورها؟ وكيف نبتت واستوت على سوقها وأينعت وأثمرت؟ وبأى ماء سقيت، وبأى تربة غذيت؟ ولا وقوف لها على الغاية التى فصدت منها فى مناشئها، ولا خبرة لها بما يترتب عليها من الثمرات، وإن وصل إليها طرف من ذلك، فإنما يكون ظاهراً من القول لا بناء على الحقيقة، فهل مع هذا يصيب الظن بأن مفاجأة بعض الأفراد بها، وسوقها إلى أذهانهم

المشحونه بغيرها، يقوم من أفكارهم، ويعدل من أخلاقهم، ويهدهم طرق الرشاد فى إفادة إخوانهم.

لعل الأقرب أن ناقلى تلك العلوم— وهم من أمة هذا شأنها مع ما ينعكس إليهم من الأوهام المألوفة فيها وما رسخ فى نفوسهم على عهد الصبا، وما يعظمونه من أمر الأمة التى تلقوا عنها علومهم — يكونون بين أمتهم كخلط غريب لا يزيد طبائعها إلا فساداً.

«ماذا يكون من أولئك الناشئين فى علوم لم تكن ينابيعها من صدورهم، ولو صدقوا فى خدمة أوطانهم؟ يكون منهم ما تعطيه حالهم، يؤدون ما تعلموه كما سمعوه، لا يراعون فيه النسبة بينه وبين مشارب الأمة وطبائعها، وما مرنت عليه من عاداتها، فيستعملونه على غير وضعه، ولبعدهم عن أصله ولهوهم بحاضره عن ماضيه، وغفلتهم عن آتيه، يظنونهم على ما بلغهم هو الكمال لكل نفس، والحياة لكل روح، فيرومون من الصغير ما لا يرام إلا من الكبير وبالعكس، غير ناظرين إلا إلى صور ما تعلموه، ولا مفكرين فى استعداد من يعرض عليهم، وهل يكون له من طبائعهم مكان يحمد؟ أو يزيدها على ما بها أضعافاً؟ وما هذا إلا لكونهم ليسوا أربابها وإنما هم لها نقلة وحملة.

«فهؤلاء الصادقون إلا من وفق الله منهم بعناية الإلهية يكون مثلهم كمثّل والدّة حنون يلذ لها غذاء، فتفيض منه على ولدها وهو رضيع ليساهمها فى اللذة، وسنه سن اللبان لا يقبل سواه،

فيسرع إليه المرض، وينتهى به إلى التلف، فتكون منزلتم من الأمة منزلة الآلة المحللة يتشتتون بقية الجمع، ويبددون أخريات الالتئام إن كان الفساد أبقي للقوم بعض الروابط، فهؤلاء المغرورون يغشونهم بما يذهلهم عنها، وما قصدوا إلا خيرا إن كانوا مخلصين، وبوسعون بذلك الخصاص^(١) حتى تعود أبوابا، ويباعدون ما بين الضفاف، حتى تصير ميادين لتداخل الأجانب تحت اسم النصحاء، وعنوان المصلحين، ويذهبون بأمتهم إلى الفتاء والاضمحلال وبئس المصير.

«شيد العثمانيون والمصريون عدداً من المدراس على النمط الجديد، وبعثوا بطوائف منهم إلى البلاد الغربية ليحملوا إليهم ما يحتاجون إليه من العلوم والمعارف والصنائع والآداب، وكل ما يسمونه تمدنا، وهو في الحقيقة تمدن للبلاد التي نشأ فيها على نظام الطبيعة، وسير الاجتماع الإنساني، هلى انتفع المصريون والعثمانيون بما قدموا لأنفسهم من ذلك وقد مضت عليهم أزمان غير قصيرة؟ هل صاروا أحسن حالا مما كانوا عليه قبل التمسك بهذا الحبل الجديد؟ هل استنقذوا أنفسهم من أنياب الفقر والفاقة؟ هلى نجوا بها من ورطات ما يلجئهم إليه الأجانب بتصرفاتهم؟ هلى أحكموا الحصون وسدوا الثغور؟ هلى نالوا بها من المنعة ما يدفع عنهم غارة الأعداء عليهم؟ هل بلغوا من البصر بالعواقب والتصرف

(١) الخصاص: الخلل أو الخرق فى الباب.

فى الأفكار حدًا يميل عزائم الطامعين عنهم؟ هل وجدت فيهم قلوب مازجتها روح الحياة الوطنية، فهى تؤثر مصلحة البلاد على كل مصلحة وتطلبها وإن تجاوزت محيط الحياة الدنيا، وإن بادت فى سبيلها خلفها وارث على شاكلتها كما كان فى كثير من الأمم؟

«نعم ربما يوجد بينهم أفراد يتفهمون بألفاظ الحرية والوطنية والجنسية وما شاكلها، ويصوغونها فى عبارات متقطعة بتراء، لا تعرف غايتها، ولا تعلم بدايتها، ووسموا أنفسهم بزعماء الحرية أو بسمات أخرى على حسب ما يختارون، ووقفوا عند هذا الحد، ومنهم آخرون عمدوا إلى العمل بما وصل إليهم من العلم، فقلبوا أوضاع المباني والمسكن، وبدلوا هيئات المآكل والملابس والفرش والآنية وسائر الماعون، وتنافسوا فى تطبيقها على أجود ما يكون منها فى الممالك الأجنبية، وعدوها من مفاخرهم، وعرضوها معرض المباهاة، فنفوا بذلك ثروتهم إلى غير بلادهم، واعتاضوا عنها أعراض الزينة مما يروق منظره ولا يحمد أثره، فأماتوا أرباب الصنائع من قومهم، وأهلكوا العاملين فى المهن لعدم اقتدارهم أن يقوموا بكل ما تستدعيه تلك العلوم الجديد والكماليات الجديدة، لأن مصانعهم لم تتحول إلى الطراز الجديد، وأيديهم لم تتعود على الصنع الجديد، وثروتهم لا تسع جلب الآلات الجديدة من البلاد البعيدة، وهذا جدد لأنف الأمة، يشوه وجهها، ويحط بشأنها، وما كان هذا إلا لأن تلك العلوم وضعت فيهم على غير أساسها وفجأتهم قبل أوانها.

«علمتنا التجارب ونطقت مواضى الحوادث بأن المقلدين من كل أمه المنتحلين أطوار غيرها، يكونون فيها منافذ وكوى لتطرق الأعداء إليها، وتكون مداركهم مهابط الوسائس ومخازن الدسائس، بل يكونون بما أفعمت أفئدتهم من تعظيم الذين قلدوهم، واحتقار من لم يكن على مثالهم، شؤماً على أبناء أمتهم، يذلونهم ويحقرون أمرهم، ويستهيئون بجميع أعمالهم وإن جلت، وإن بقى فى بعض رجال الأمة بقية الشمم، أو نزوع إلى معالى الهمم، أنصبوا عليه وأرغموا من أنفه، حتى يمحى أثر الشهامة، وتخذم حرارة الغيرة، ويصير أولئك المقلدون طلائع لجيوش الغالبين وأرباب الغارات يمهدون لهم السبيل ويفتحون الأبواب، ثم يثبتون أقدامهم ويمكنون سلطتهم، ذلك بأنهم لا يعلمون فضلاً لغيرهم ولا يظنون أن قوة تغالب قواهم.

«أقول ولا أخشى لوماً: لو كان فى البلاد الأفغانية عدد قليل من تلك الطلائع عندنا تغلب على بعض أراضيها الإنجليز - لما بارحوها أبد الآبدين، فإن نتيجة العلم عند هؤلاء ليست إلا توطيد المسالك، والركون إلى قوة مقلديهم واستقبال مشارق فنونهم، فيبالغون فى تطمين النفوس وتسكين القلوب، حتى يزيلوا الوحشة التى قد يصون بها الناس حقوقهم، ويحفظون بها استقلالهم. ولهذا لو طرق الأجانب أرضاً لأبية أمة ترى هؤلاء المتعلمين فيها يقبلون عليهم ويعرضون أنفسهم لخدمتهم بعد الاستبشار

بقدمهم، ويكونون بطانة لهم ومواضع لثقتهم، كأنما هم منهم،
ويعدون الغلبة الأجنبية في بلادهم مباركة عليهم وعلى أعقابهم.

«فما الحيلة وما الوسيلة، والجرائد بعيدة الفائدة ضعيفة الأثر
لو صحت الضمائر فيها، والعلوم الجديدة لسوء استعمالها رأينا
ما رأينا من آثارها، والوقت ضيق والخطب شديد؟ أى جهورى
من الأصوات يوقظ الراقيدين على حشايا الغفلات؟ أى قاصفة تزعج
الطباع الجامدة، وتحرك الأفكار الخامدة؟ أى نفخة تبعث هذه
الأرواح فى أجسادها، وتحشرها إلى مواقف صلاحها وفلاحها؟
الأقطار فسيحة الجوانب، بعيدة المناكب، المواصلات عسرة بين
الشرقى والغربى والجنوبى والشمالى، الرءوس مطرقة إلى ما
تحت القدم أو منفضة إلى ما فوق السماء، ليس للأبصار جولان إلى
الأمام والخلف واليمين والشمال، ولا للأسماع إصغاء، ولا للنفوس
رغبات، وللأهواء تحكم، وللوساوس سلطان.

ماذا يصنع المشفقون على الأمة والزمن قصير؟ ماذا يحاولون
والأخطار محدقة بهم بأى سبب يتمكنون ورسى المنايا على
أبوابهم؟

لا أطيل عليك بحثا ولا أذهب بك فى مجالات بعيدة من البيان،
ولكنى أستلفت نظرك إلى سبب يجمع الأسباب، ووسيلة تحيط
بالوسائل: أرسل طرفك إلى نشأة الأمة التى خملت بعد النباهة،

وضعفت بعد القوة، واستترقت بعد السيادة، وخيمت بعد المنعة، وتطلب أسباب نهوضها الأول، حتى تتبين مضارب الخلل وجراثيم العلل، فقد يكون ما جمع كلمتها، وانفض همم آحادها، ولحم ما وبين أفرادها، وصعد بها إلى مكانة تشرف منها على رعوس الأم، وتسوسهم وهى فى مقامها بدقيق حكمتها، وإنما هو دين قويم الأصول، محكم القواعد، شامل لأنواع الحكم، باعث على الألفة، داع إلى المحبة، مزك للنفوس، مطهر للقلوب من أدران الخسائس، منور للعقول بإشراق الحق من مطالع قضاياء، كافل لكل ما يحتاج إليه الإنسان من مبانى الاجتماعات البشرية. وحافظ وجودها. وينادى بمعتقديه إلى جميع فروع المدنية.

«فإن كانت هذه شرعتها، ولها وردت، وعنهما صدرت. فما تراه من عارض خللها، وهبوطها عن مكانتها، إنما يكون من طرح تلك الأصول ونبذها ظهرياً. وحدوث بدع ليست منها فى شئ، أقامها المعتقدون مقام الأصول الثابتة، وأعرضوا عما يرشد إليه الدين وعما أتى لأجله، وما أعدته الحكمة الإلهية له، حتى لم يبق منه إلا أسماء تذكر، وعبارات تقرأ. فتكون هذه المحدثات حجاباً بين الأمة وبين الحق الذى نشعر بندائه أحياناً بين جوانحها.

فعلاجها الناجح إنما يكون برجوعها إلى قواعد دينها، والأخذ بإمكان على ما كان فى بدايته، وإرشاد العامة بمواظبة الوافية بتطهير القلوب وتهذيب الأخلاق، وإيقاد نيران الغيرة، وجمع

الكلمة، وبيع الأرواح لشرف الأمة، ولأن جرثومة الدين متأصلة فى النفوس بالوراثة من أحقاب طويلة، والقلوب مطمئنة إليه، وفى زواياها نور خفى من محبته، فلا يحتاج القائم بإحياء الأمة إلى نفخة واحدة يسرى نفثها فى جميع الأرواح لأقرب وقت، فإذا قاموا لشئونهم، ووضعوا أقدامهم على طريق نجاتهم، وجعلوا أصول دينهم الحققة نصب أعينها، فلا يعجزهم بعد أن يبلغوا بسيرهم منتهى الكمال الإنسانى...

ومن طلب إصلاح أمة شأنها ما ذكرنا بوسيلة سوى هذه، فقد ركب بها شططا، وجعل النهاية بداية، وانعكست التربية، وخالف فيها نظام الوجود فينعكس عليه القصد، ولا يزيد الأمة إلا نحسا، ولا يكسبها إلا تعسا.

«هل تعجب أيها القارئ من قولى إن الأصول الدينية الحققة، المبرأة عن محدثات اليدع، تنشئ للأمم قوة الاتحاد، وائتلاف الشمل وتفضيل الشرف على لذة الحياة، وتبعثها على اقتناء الفضائل وتوسيع دائرة المعارف، وتنتهى بها إلى أقصى غاية فى المدينة؟! إن عجبت فإن عجبى من عجبك أشد!!

هل نسيت تاريخ الأمة العربية وما كانت عليه قبل بعثة الدين من الهمجية والشتات، واتيان الدنيا والمنكرات، حتى إذا جاءها الدين فوحدها وقواها وهذبها، ونور عقولها، وقوم أخلاقها، وسدد أحكامها، فسادت على العالم، وساست من تولته بسياسة

العدل والإنصاف، وبعد أن كانت عقول أبنائها فى غفلة عن لوازم المدنية ومقتضياتها نبهتها شريعتها وآيات دينها إلى طلب الفنون المتنوعة والتبحر فيها، ونقلوا إلى بلادهم طب بقراط وجالينوس وهندسة إقليدس، وهيئة بطليموس، وحكمة أفلاطون وأرسطو، وما كانوا قبل الدين فى شئ من هذا، وكل أمه سادت تحت هذا اللواء إنما كانت قوتها ومدنيتها فى التمسك بأصول دينها.

«وقد تكون نشأة الأمة قائمة بدعوة الملك، وافتتاح الأقطار، وطلب السيادة على الأمصار، وتلك الدعوة لما تستدعيه من عظم الهمم، وارتفاع النفوس عن الدنيا، وبعد الغايات، وعلو المقاصد هى التى هذبت أخلاقهم، وقومت أفكارهم وكفقتهم عن معاطاة الرذائل وخسائس الأمور وسوافلها، ثم بعد ما مضى زمان من نشأتها أصابها من الانحطاط ما أصابها.»

تجريد مصر من قوتها الحربية

وفى نفس العدد قالت ما يأتى تحت عنوان (مقاصد إنجليزية فى مصر):

«فى كل يوم تلح جريدة التيمس على حكومة إنجليزية بوجوب طرد العساكر المصرية الوطنية زاعمة أنه يحل من الأهالى محل القبول ويسرون منه غاية السرور وتشير على الحكومة أيضا أن تجهر بحمايتها لمصر وتظهر للدول أنها تتحمل كل تبعة تحصل من مداخلتها فى تلك البلاد وأن ذلك من مقتضى الحزم فإن الإدارة

المصرية وفروعها في حاجة إلى إصلاح حقيقى ولن يقوم به إلا رجال الإنجليز.

وهذا من تلك الجريدة وغيرها سوق للحكومة إلى إظهار ما أكتنته من السلطة على البلاد المصرية وضمها إلى ممالكها الشرقية ، وما كان ذلك خافيا على أحد وإن كان بعض المصريين غالتوا فيه أنفسهم عن علم أو جهل والله أعلم.

«وما تطلبة الجرائد من طرد العساكر الوطنية إنما هو مقدمة التملك ورسوخ القدم ، ثم تموه في تحسين ذلك بدعواها أن الأهالي يفرحون منه ، مع أن أول ثورة عسكرية سر بها المصريون على عهد وزارة ويلسون^(١) إنما كان منشأها العزم على تقليل عدالعساكر وإقبال المدرسة العسكرية ، فالمصريون وهم هم لا تعقل مسرتهم من طرد حاميتهم الوطنية بل ينزعجون منه غاية الانزعاج».

تخاذل الشرقيين والدعوة إلى الوحدة بينهم

وكتبت في عدد ١٠ أبريل سنة ١٨٨٧ (١٤ جمادى الثانية سنة ١٣٠١هـ) تحت عنوان (واعتصموا بحبل الله جميعاً ولا تفرقوا)

(١) تقصد الوزارة المختلطة التي كان يرأسها نوبار سنة ١٨٧٨م وكان فيها وزيران أجنبيان. أحدهما إنجليزى وهو ريفرس ويلسن Revers Wilsod ، والثانى فرنسى ، وهو دى بلينيير De Blignieres وقد سمتها (العروة الوثقى) وزارة ويلسن لأنه كانت له فيها الكلمة النافذة. للتحقير من شأن رئيسها نوبار وتقصد بالثورة العسكرية ثورة الضباط على هذه الوزارة سنة ١٨٧٩م وأدت إلى إسقاطها.

مقال أخذت فيها على المسلمين تخاذلهم وتفرقهم وإغفالهم شئون إخوان لهم فى بلدان أخرى وعدم اكتراثهم لما يحل بهم ففقدوا التضامن بينهم ولهم يعد ثمة تعاون بين رجال الدين والسياسة فى مختلف الأقطار، وبينت أن تفرق الكلمة فى الدول الإسلامية أضعف من شأنها وجعلها هدفاً لمطامع أعدائها، ودعت العلماء فى جميع الأقطار الإسلامية إلى توحيد كلمتهم وتوفير الصلات بينهم لدفع الأخطار عن أوطانهم.

«إن للمسلمين ستره فى دينهم، وقوة فى إيمانهم، وثباتاً على يقينهم، يباهون بها من عداهم من الملل، وإن فى عقيدتهم أوثق الأسباب لارتباط بعضهم ببعض، ومما رسخ فى نفوسهم أن فى الإيمان بالله وما جاء به نبيهم ﷺ كفاية لسعادة الدارين. ومن حرم الإيمان فقد حرم السعادتين ويشفقون على أحدهم أن يمرق من دينة أشد مما يشفقون عليه من الموت والفناء، وهذه الحالة كما هى فى علمائهم متمكنة فى عامتهم، حتى لو سمع أى شخص منهم فى أى بقعة من بقاع الأرض عالماً كان أول جاهلاً ممن وسم بسمه الإسلام فى أى قطر ومن أى جنس صبا عن دينه رأيت من يصل إليه هذه الخبر فى تحرق وتأسف يلهج بالحوقة والاسترجاع، وبعد النازلة من أعظم المصائب على من نزلت به، بل وعلى جميع من يشاركه فى دينه، ولو ذكرت مثل هذه الحادثة فى تاريخ وقرأها قارئهم بعد مئتين من السنين لا يتمالك قلبه من الأضطراب، ودمه

من الغليان، ويستفزه الغضب ويدفعه لحكاية ما رأى كأنه يحدث عن غريب أو يحكى عن عجيب.

«المسلمون بحكم شريعتهم ونصوصها الصريحة مطالبون عند الله بالمحافظة على ما يدخل فى ولايتهم من البلدان وكلهم مأمور بذلك لافرق بين قريبهم وبعيدهم ولا بين المتمدين فى الجنس ولا المختلفين فيه. وهو فرض عين على كل واحد منهم إن لم يقم قوم بالحماية عن حوزتهم كان على الجميع أعظم الآثام، ومن فروضهم فى سبيل الحماية وحفظ الولاية بذل الأموال والأرواح، وارتكاب كل صئب واقتحام كل خطب، ولا يباح لهم المسالمة مع من يغالبهم فى حال من الأحوال حتى ينالوا الولاية خالصة لهم من دون غيرهم، وبالغت الشريعة فى طلب السيادة منهم على من يخالفهم إلى حد لو عجز المسلم عن التملص من سلطة غيرة، لوجب عليه الهجرة من دار حرب، وهذه قواعد مثبتة فى الشريعة الإسلامية يعرفها أهل الحق، ولا يغير منها تأويلات أهل الأهواء وأعوان الشهوات فى كل زمان.

«المسلمون يحس كل واحد منهم بهاتف يهتف من بين جنبيه يذكره بما تطالبه به الشريعة، وما يفرض عليه الإيمان، وهو هاتف الحق الذى بقى له من إلهامات دينه، ومع كل هذا نرى أهل هذا الدين فى هذه الأيام بعضهم فى غفلة عما يلم بالبعض الآخر، ولا يألمون لما يألم له بعضهم فأهل بلوخستان كانوا

يرون حركات الإنجليز في أفغانستان على مواقع أنظارهم، ولا يجيش لهم جأش ولا تكون لهم نعمة على إخوانهم، والأفغانيون كانوا يشهدون تداخل الإنجليز في بلاد فارس، ولا يضجرون ولا يتمللمون، وأن جنود الإنجليز تضرب في الأرض المصرية ذهاباً وإياباً تقتل وتفتك، ولا ترى نجدة في نفوس إخوانهم المشرقين على مجارى دمائهم، بل السامعين لخبرها من حلاقيهم، الذين احمرت أحداقهم من مشاهدتها بين أيديهم وتحت أرجلهم وعن أيمانهم وعن شمائلهم.

«تمسك المسلمون بتلك العقائد وإحساسهم بداعية الحق في نفوس مع هذه الحالة التي هم عليها مما يقضى بالعجب ويدعو إلى الحيرة، ويسبق إلى بيان السبب، فخذ مجملًا عنه: إن الأفكار العقلية والعقائد الدينية وسائر المعلومات والمدرجات والوجدانيات النفسية وإن كانت هي الباعثة على الأعمال وعن حكمها تصدر بتقدير العزيز العليم، لكن الأعمال تثبتتها وتقويها وتطبعها في الأنفس وتطبع الأنفس عليها حتى يصير ما يعبر عنه بالملكة والخلق، وتترتب عليه الآثار التي تلائمها.

«نعم إن الإنسان إنسان بفكره وعقائده إلا أن ما ينعكس إلى مزايا عقله من مشاهد نظره ومدرجات حواسه يؤثر فيه أشد التأثير، فكل شهود يحدث فكراً، وكل فكر يكون له أثر في داعية، وعن كل داعية ينشأ عمل، ثم يعود من العمل إلى الفكر، ولا ينقطع الفعل

والأنفعال بين الأعمال والأفكار، مادامت الأرواح فى الأجساد وكل قبيل هو للآخر عماد.

«إن للأخوة وسائر نسب القرابة صورة عند العقل ولا أثر لها فى الاعتصاب والالتمام لولا ما تبعث عليه الضرورات، وتلجىء إليه الحاجات، من تعاون الأنسباء والعصبة على نيل المنافع، وتضافرهم على دفع المضار، وبعد كرور الأيام على المضافرة والمناصرة تأخذ النسبة من القلب مأخذا يصرفه فى آثارها بقية الأجل ويكون انبساط النفس لعون القريب، وغضاضة القلب لما يصيبة من ضيم أو نكبة جاريا مجارى الوجدانيات الطبيعية، كالإحساس بالجوع والعطش والرى والشبع، بل اشتبه أمره على بعض الناظرين فعهه طبيعياً. فلو أهملت صلة النسب بعد ثبوتها والعلم بها، ولم تدع ضرورات الحياة فى وقت من الأوقات إلى ما يمكن تلك الصلة ويؤكددها، أو وجد صاحب النسب من يظاهاه فى غير نسبة أو ألجأته ضرورة إلى ذلك، ذهب أثر تلك الرابطة النسبية، ولم يبق منها إلا صورة فى العقل تجرى مجرى المحفوظات من الروايات والمنقولات، وعلى مثال ما ذكرنا فى رابطة النسب وهى أقوى رابطة بين البشر يكون الأمر فى سائر الاعتقادات التى لها أثر فى الاجتماع الإنسانى من حيث ارتباط بعضه ببعض، إذا لم يصحب العقد الفكرى ملجىء الضرورة أو قوة الداعية إلى عمل تنطبع عليه الجارحة وتمرن عليه

ويعود أثر تكريره على الفكر حتى يكون هيئة للروح وشكلاً
أشكالها، فلن يكون منشأ لآثاره، وإنما يعد في الصورة العلمية له
رسم يلوح في الذاكرة عند الالتفات إليه كما قدمنا.

«بعد تدبر هذه الأصول البينة، والنظر فيها بعين الحكمة،
يظهر لك السبب في سكون المسلمين إلى ما هم فيه مع شدتهم في
دينهم، والعلة في تباطؤهم عن نصره إخوانهم وهم أثبت الناس
في عقائدهم. فإنه لم يبق من جامعة بين المسلمين في الأغلب إلا
العقيدة الدينية مجردة عما يتبعها من الأعمال، وانقطع التعارف
بينهم وهجر بعضهم بعضاً هجراً غير جميل، فالعلماء وهم القائمون
على حفظ العقائد وهداية الناس إليها لا تواصل بينهم ولا تراسل،
فالعالم التركي في غيبة عن حال العالم الحجازي فضلاً عما يبعد
عنهم، والعالم الهندي في غفلة عن شئون العالم الأفغاني، وهكذا
بل العلماء من أهل قطر واحد لا ارتباط بينهم، ولا صلة تجمعهم
إلا ما يكون بين أفراد العامة لدواع خاصة من صداقة أو قرابة بين
أحدهم وآخر، أما هيئتهم الكلية فلا وحدة لهم، بل لا أنساب
بينهم، وكل ينظر إلى نفسه ولا يتجاوزها كأنه كون برأسه.

«كما كانت هذه الجفوة وذاك الهجران بين العلماء كانت كذلك
بين الملوك والسلاطين من المسلمين، أليس بعجيب أن لا تكون
سفارة للعثمانيين في مراكش ولا لمراكش عند العثمانيين؟ أليس
بغريب أن لا تكون للدولة العثمانية صلات صحيحة مع الأفغانيين
وغيرهم من طوائف المسلمين في الشرق؟»

«هذا التدابير والتقاطع وإرسال الحبال على الغوارب عم المسلمين حتى صح أن يقال لا علاقة بين قوم منهم وقوم، ولا بلد وبلد. إلا طيف من الإحساس بأن يعرض الشعوب على دينهم ويعتقدون مثل اعتقادهم، وربما يتعرفون مواقع أقطارهم بالصدفة إذا التقى بعضهم ببعض في موسم الحجيج العام، وهذا النوع من الإحساس هو الداعي إلى الأسف وانقباض الصدر إذا شعر مسلم بضياح حق مسلم على يد أجنبي عن ملته، لكنه لضعفه لا يبعث على النهوض لمعارضته كانت الملكة كجسم عظيم قوى البنية صحيح المزاج، فنزل به من العوارض ما أضعف الالتئام بين أجزائه. فتداعت للتناثر والانحلال. وكاد كل جزء يكون على حدة وتضحمل هيئة الجسم.

«بدأ هذا الانحلال والضعف في روابط الملة الإسلامية عند انفصال الرتبة العلمية عن رتبة الخلافة وقتما قنع الخلفاء العباسيون باسم الخلافة دون أن يحوزوا شرف العلم والتفقه في الدين والاجتهاد في أصوله وفروعه كما كان الخلفاء الراشدون عليهم السلام كثرت بذلك المذاهب وتشعب الخلاف من بداية القرن الثالث من الهجرة إلى حد لم يسبق له مثيل في دين من الأديان ثم انثلمت وحدة الخلافة فانقسمت إلى أقسام، خلافة عباسية في بغداد، وفاطمية في مصر والمغرب، وأموية في أطراف الأندلس، تفرقت بهذا كلمة الأمة وانشقت عصاها وانحطت رتبة الخلافة إلى وظيفة

الملك، فسقطت هيبتها من النفوس، وخرج طلاب الملك والسلطان يدأبون إليه من وسائل القوة والشوكة ولا يراعون جانب الخلافة. وزاد الاختلاف شدة وتقطعت الوشائج بينهم بظهور جنكيز خان وأولاده وتيمور لنك وأحفاده وإيقاعهم بالمسلمين قتلا وإذلالا حتى أذهلوهم عن أنفسهم فتفرق الشمل بالكلية وانفصمت عرى الالتئام بين الملوك والعلماء جميعا وانفرد كل بشأنه وانصرف إلى ما يليه، فتبدد الجمع إلى آحاد، وافترق الناس فرقا كل فرقة تتبع داعيا إما إلى ملك أو مذهب، فضعفت آثار العقائد التي كانت تدعو إلى الوحدة، وتبعث على اشتباك الوشيعة، وصار ما فى العقول منها صورا ذهنية تحويها مخازن الخيال وتلحظها الذاكرة عند عرض ما فى خزائن النفس من المعلومات، ولم يبق من آثارها إلا أسف وحسرة يأخذان بالقلوب عندما تنزل المصائب ببعض المسلمين بعد أن ينفذ القضاء ويبلغ الخبر إلى المسامع على طول من الزمان، وما هو إلا نوع من الحزن على الفائت، كما يكون على الأموات من الأقارب، لا يدعو إلى حركة لتدارك النازلة، ولا دفع الغائلة.

«وكان من الواجب على العلماء قياما بحق الوراثة التى شرفوا بها على لسان الشارع أن ينهضوا لإحياء الرابطة الدينية ويتداركوا الاختلاف الذى وقع فى الملك بتمكين الاتفاق الذى يدعو إليه الدين، ويجعلوا معاقد هذا الاتفاق فى مساجدهم. ومدارسهم حتى

يكون كل مسجد وكل مدرسة مهبطاً لروح حياة الوحدة ويصير كل واحد منها كحلقة في سلسلة واحدة إذا اهتز أحد أطرافها اضطرب لهزته الطرف الآخر، ويرتبط العلماء والخطباء والأئمة والوعاظ في جميع أنحاء الأرض بعضهم ببعض ويجعلون لهم مراكز في أقطار مختلفة يرجعون إليها في شئون وحدتهم ويأخذون بأيدي العامة إلى حيث يرشدهم التنزيل وصحيح الأثر، ويجمعوا أطراف الوشائج إلى مقعد واحد يكون مركزه في الأقطار المقدسة وأشرفها معهد بيت الله الحرام، حتى يتمكنوا بذلك من شد أزر الدين وحفظه من قوارع العدوان، والقيام بحاجات الأمة إذا عرض حادث الخلل وتطرق الأجانب للتداخل فيها بما يحط من شأنها ويكون كذلك أدعى لنشر العلوم وتنوير الأفهام وصيانة الدين من البدع، فإن إحكام الربط إنما يكون بتعيين الدرجات العلمية وتحديد الوظائف، فلو أبدع مبدع أمكن بالتواصل بين الطبقات تدارك بدعته ومحوها قبل فشوها بين العامة، وليس بخاف على المستبصرين ما يتبع هذا من قوة الأمة وعلو كلمتها واقتدارها على دفع ما يغشاها من النوازل.

«إلا أننا نأسف غاية الأسف إذ لم تتوجه خواطر العلماء والعقلاء من المسلمين إلى هذه الوسيلة وهي أقرب الوسائل وإن التفتت إليها في هذه الأيام طائفة من أرباب الغيرة، ورجاؤنا من ملوك المسلمين وعلمائهم من أهل الحمية والحق أن يؤيدوا هذه الفئة ولا يتوانوا فيما يوحد جمعهم ويجمع شتيتهم، فقد دارستهم التجارب ببيان

لا مزيد عليه، وما هو بالعسير عليهم أن يبتثوا الدعاة إلى من يبعد عنهم، ويصافحوا بالأكف من هو على مقربة منهم، ويعترفوا أحوال بعضهم فيما يعود على دينهم وملتهم بفائدة أو ما يخشى أن يمسها بضرر. ويكونون بهذا العمل الجليل قد أدوا فريضة وطلبوا سعادة، والرمق باق والآمال مقبلة، وإلى الله المصير».

الجيش المصرى بقيادة الإنجليز والسياسة الاستعمارية فى مصر والهند

وقالت فى عدد ١٨ رجب سنة ١٣٠١هـ (١٥ مايو سنة ١٨٨٤م):
«دخل الإنجليز مصر فزعموا أن ما كان موجودا من الجند الأهلى نفخت فيه روح العصيان فلا يصلح للأعمال العسكرية فطردوه ثم اختاروا من الأهالى جندا جديدا فى عدد قليل، واستلم الرئاسة عليهم ضباطهم البارعون وبعد أشهر أثبتوا عليه بحسن النظام وسرعة النجاح وطمطنت بالإطراء عليه جرائدهم ولم نلبث بعد هذا أن رأيناهم يسارعون إلى طرد الجند الجديد^(١). فهموا بذلك مرارا

(١) تأييد لما ذكرته (العودة الوثقى) نقول: إن أول ما فكر فيه الاحتلال من التغييرات الجوهرية هو إلغاء الجيش المصرى وخلق جيش هزيل يرأسه ضابط من الإنجليز، وقد بادر الإنجليز منذ الساعة الأولى إلى إلغاء الجيش الوطنى، فأصدر الخديو توفيق فى ١٩ سبتمبر سنة ١٨٨٢م.

بإيعاز منهم مرسوماً بإلغاء الجيش المصرى بدعوى مناصرته للثورة العربية، وكان التعجيل بهذا الإجراء الخطير ذريعة للإنجليز لتوسيع بقاء جنودها فى مصر

مع العزم على استبداله بآخر من أبناء الوطن، وكلما صدتهم بعض الموانع السياسية عن همهم كتموا أمرهم زمنا ثم عادوا للإشارة إليه تعللا بما ينسبونه إلى بعض العساكر، وهو من دسائسهم، وآخر الأمر خفتت أصواتهم وأحسوا بعجزهم عن الاستبداد بطرد الحامية الوطنية وعلموا أن لابد فيه من مشورة الدول.

«فى هذه الأيام رغبوا إلى الدول فى عقد مؤتمر للنظر فى قانون التصفية وتحويره، ووضع نظام للمالية المصرية يخفف عنها بعض أثقالها فصرحوا فى لائحتهم المرسلة إلى حكومات أوروبا بضرورة طرد الجند الوطنى رعاية للاقتصاد وبلزوم تخفيض فائدة الديون المصرية^(١)».

بحجة المحافظة على النظام فيها وعندما أوفدت إنجلترا اللورد دفرين سفيرها بالآستانة إلى مصر وعهدت إليه وضع تقرير عن الحالة فيها. رفع تقريره فى ٦ فبراير سنة ١٨٨٣م إلى اللورد جرانفيل وزير خارجيتها وقد تكلم فيه عن الجيش المصرى فذهب إلى أن مصر ليست فى حاجة إلى قوة عسكرية كبيرة للدفاع عنها (تأمل!) وإن مهمة الجيش المصرى يجب أن تنحصر فى إقرار الأمن والنظام داخل البلاد، وأوحى بأن لا يتجاوز عدده ستة آلاف جندي، على أن يتولى قيادته قائد إنجليزى يعاونه لفيف من الضباط الإنجليز، وبذلك وضع دفرين فى تقريره قاعدة تجريد مصر من كل قوة حربية وهى السياسة التى حرصت إنجلترا على اتباعها طول عهد الاحتلال.

(١) المؤتمر الذى تشير إليه العروة الوثقى هو مؤتمر لندن الذى دعت إنجلترا الدول فى ١٩ أبريل سنة ١٨٨٤م إلى عقده للمفاوضة فى شئون مصر المالية والنظر فى تعديل قانون التصفية، وقد عقد بلندن فى يونيو سنة ١٨٨٤م، ولم يكن عقده لصالح مصر، بل كان مظهرًا للحماية المقنعة التى اعترمت فرضها عليها. لأن عقد مؤتمر

«إن الإنجليز ست سنوات جعلوا الضيق فى المالية المصرية ذريعة للانقلاب العظيم الذى حصل فى مصر^(١) وألزموا الدولة العثمانية بمجاراتهم فى ذاك الانقلاب ودافعوا عن الدائنين وزعموا من المحال تنقيص شىء من الفوائد وطلبوا من الحكومة المصرية إن ذاك تقليل عدد حاميتها ليتوفر من النقود ما يصرف لحقوق الدائنين. واليوم عطفوا على المصريين (عطفة الأب الرحيم) وبسطوا أيديهم إلى الدول يلتمسون مساعدتها لتخفيف الفائدة مع محو حاميتهم الوطنية، أليست البلاد المصرية كسائر بلاد العالم تحتاج إلى حامية تحفظ حدودها من الخارج وتصون داخلها من الغوائل التى لا تأمن طروقتها حكومة من الحكومات، إن فى تلك القسوة الأولى والمرحمة الثانية كسرا عظيما.

«للإنجليز فى مصر مطامع من زمن قديم يعدون سلطتهم عليها من ضروريات شوكتهم فى الهند، وفى خلداهم أن المصريين لو كانت لهم ثروة مالية وقوة عسكرية عظيمة فإنهم يخالفونهم فيما يريدون ببلادهم، فضيقوا على المالية فى تلك الأوقات، وألجنوا الحكومة لتمزيق قوتها العسكرية ليحصل الضعف فى القوتين المالية والجندية فتمهد لهم طريق ما طمحوا إليه، وكان هذا

للنظر فى شئون مصر المالية بون السياسة معناه إطلاق يد الإنجليز فى مصر على أن هذا المؤتمر قد انفض على غير جدوى إذ لم يتفق المؤتمر على طريقة حالة مصر المالية.

(١) يقصد على الراجح خلع الخديو إسماعيل.

التدبير سببا فى الانقلاب الذى تبعته هذه الحوادث الهائلة، وبعد ما فتح لهم بضعف الحكومة سبيل المداخلة فى مصر طفقوا يسعون بما جلبوا عليه من الهوينا فى المضى إلى مقاصدهم لإيجاد عنوان غير التملك يعنون به إقامة عساكرهم ومأموريهم فى تلك البلاد زمنا طويلا، ويكون وضع ذلك العنوان برأى الدول تملصا من الوعد الذى وعدوها به مع ترقب حوادث السياسة فى أوربا لعل حادثة منها تساعد على إبدال العنوان بما هو المطلوب لهم، ورأوا من أحسن الوسائل لدعوة الدول إليهم عرض المسألة المالية».

«ولما كان من المحتوم فى آرائهم بقاء عساكرهم فى الديار المصرية، فلا بد من طلب وسيلة لطرد الجند المصرى حتى تكون الحاجة إلى عساكرهم قائمة، هذه طريقة ربما خفيت على المصريين وغفل عنها كثير من الأوربيين إلا أنها من الطرق المتعارفة عند الإنجليز، وهى التى سلكوها فى البلاد الهندية ونالوا بسلوكها السلطة المطلقة على تلك الأقطار الواسعة بدون سفك دماء غزيرة ولا مقاومة فتن شديدة دمر^(١) الإنجليز على الهنديين فى أراضيهم وانبثوا بينهم فتمكنوا من تفريق كلمة الأمراء وإغراء كل نواب أوراجا بالاستقلال والانفصال عن السلطة التيمورية فتمزقت المملكة إلى ممالك صغيرة، ثم أغروا كل أمير بآخر يطلب قهره والتغلب على ملكه، فصارت الأراضى الهندية الواسعة ميادين

(١) دمر عليه: دخل بدون إذن أو هجم هجوم الشر.

للقتيال واضطر كل نواب أوراجا إلى النقود والجنود ليدافع بها عن حقه أو يتغلب بها على عدوه فعند ذلك تقدم الإنجليز بسعة الصدر وانبساط النفس ومدوا أيديهم لمساعدة كل من المتنازعين وبسطوا لهم إحدى الراحتين ببدر الذهب، وقبضوا بالأخرى على سيف الغلب، بدءوا قبل كل عمل بتنفير أولئك الملوك الصغار من عساكرهم الأهلية ورموها بالضعف والجبن والخيانة والاختلال ثم أخذوا فى تعظيم شأن جيوشهم الإنجليزية وقوادها وما هم عليه من العفة والبسالة والنظام حتى اقتنع كل نواب أوراجا بأن لا ناصر له على مغالبه إلا بالجنود الإنجليزية فأقبل الإنجليز على أولئك السذج يضمنون لكل صيانة ملكه وفوزه بالتغلب على غيره بجنود منتظمة تحت قيادة قواد من الإنجليز ويكون بعض الجنود من الهنديين وبعضها من البريطانيين، وما على الحاكم إلا أن يؤدي نفقتها، ثم خلبوا عقول أولئك الأمراء بدهائهم وبهرجة وعودهم ولين مقالهم حتى أرضوهم بأن يكون على القرب من عاصمة كل حاكم فرقة من العساكر لتدفع شر بعضهم عن بعض، وصار الإنجليز بذلك أولياء المتباغضين وسموا كل فرقة من تلك الجنود باسم يلائم مشرب الحكومة التى أعدوها للحماية، عنها فرقة وأخرى سموها (عمرية) سموها (جعفرية) وغيرها سموها (كشتية) إرضاء لأهل السنة الشيعية والوثنيين».

«ولما فرغت خزائن الحكام وقصرت بهم الثورة عن أداء النفقات العسكرية فتح الإنجليز خزائنهم وتساهلوا مع أولئك الحكام فى

القرض وأظهروا غاية السماحة، فبعضهم يقرضون بفائدة قليلة. وبعضهم بدون فائدة وينتظرون به الميسرة حتى ظن كل أمير أن الله قد أمده بأعوان من السماء، وبعد مضي زمان كانوا يؤمنون إلى طلب ديونهم بغاية الرفق، ويشيرون إلى المطالبة بنفقات العساكر مع نهاية اللطف، فإذا عجز الأمير عن الأداء قالوا إنا نعلم أن وفاء الديون والقيام بنفقات الجنود يصعب عليكم، ونحن ننصحكم أن تفوضوا إلينا العمل في قطعة كذا من الأرض نستغلها ونستوفي منها ديوننا وننفق من غلاتها على الجيوش التي أقمناها لكم ثم الأرض أرضكم نردها إليكم عند الاستيفاء والاستغناء، وإنما نحن خادمون لكم فيضعون أيديهم على غصوات^(١) الأراضي وفيحائه، وفي أثناء استغلالها يؤسسون بها قلعا حصينة وحصونا منيعة كما يفعلون ذلك في تكن (أماكن إقامة العساكر) عساكرهم على أبواب العواصم الهندية، وفي خلال هذا يفتحون للأمرء أبوابا من الإسراف والتبذير ويقرضونهم ويقتضون أقرضهم بالقيام على أراض أخرى يضمنونها إلى الأولى ثم يذكون نار العدواة بين الحكام لتتشب بينهم حروب فيتدخلون في أمر الصلح فيجبرون أحد المتحاربين على التنازل للآخر عن جزء من أملاكه ليتنازل لهم الثاني عن قطعة من أراضيه، وهم في جميع أعمالهم موسومون بالخدام الصادق والناصح الأمين لكل من المتغالبين، وبعد هذا فلهم شئون لا يهملونها في إيقاع الشقاق بين سائر الأهالي لتضعف قوة

(١) الأرض الطيبة. ويقال هم غصراء من العيش أى في خصب وخير.

الوحدة الداخلية ويخرب بعضهم بيوت بعض حتى إذا بلغ السير نهايته واضمحلت جميع القوى من الحاكم والمحكوم وغلت الأيدي فلا يستطيع أحدا حراكا ساقوا الحاكم إلى المجزرة بسيوف تلك العساكر التي كانت حامية له واقية لبلاده وكانت تشحذ لجز عنقه من سنين طويلة وينفق على صقالها من ماله، ثم خلفوه على ملكه وكانوا يميلون بقوتهم إلى أحد أعضاء العائلة المالكة ليطلب الملك، فيخلعون المالك ويولون الطالب على شريطه أن يقطعهم أرضا أو يمنحهم امتيازاً فيحولون الملك من الأب لابن ومن الأخ لأخيه ومن العم لابن أخيه وفي الكل هم الرابحون، وهذا سيرهم في الهند وهو على بعد من مراقبة أوربا، ما فاجئوا أحدا بحرب وما اختطفوا ملكا بقوة مغالبة بل ما أعلنوا سيادتهم على مملكة صغيرة ولا كبيرة إلا بعدما أيقنوا أن لا قوة لحاكمها ولا أهلها ولا بما تطرف به أجفانهم».

«أولئك الإنجليز باقعة»^(١) العالم وأحبال الحيل يريدون اليوم طرد العساكر المصرية، وأرض مصر لا تحرسها الملائكة فلا تستغنى عن حامية، فإن تم ما أرادوا زينوا لبعض ذوى السلطة في مصر أن طلب منهم جنداً إنجيلزياً يكون خادماً له وحافظاً لملكه، فإن لم يقبل داروا بحيلتهم تحت أستار التمويه على كل من له حق فى الولاية على تلك البلاد يعرضونها عليه حتى يعثروا بمن يقبل نصحهم أو غشهم ذهبوا عن حقيقة القصد فيقيمونه حاكماً خلفاً لمن

(١) الباقعة: الداهية.

لم تسمح ذمته بالقبول وتكون رغبة المغرور حجة لهم عند أوربا ، هذا سر انقلاب الإنجليز على الجند الوطنى وقدحهم فى سيرته بعد الثناء على حسن استعداده وسعيهم إلى طرده بالأدلة الواهية والعلل الواهنة».

«أما المؤتمر فالداعى إليه أن العدوان فى هذه الأزمان لا يأتية المعتدون كما كان فى الأحقاب الحالية مشوه الوجه منكر الصورة يعرفه الذكى والغبى ، بل من أراد عدوانا فلا بد أن يحفه بمواكب من الأدلة وخفال^(١) من البراهين وهو ما يعبرون عنه بالحقوق والمصالح ، وما أصعب الوقوف على كنه العدوان وهو فى هذه الحيلة وتلك الهيئة الجميلة.

«يريد الإنجليز عقد المؤتمر ويرغبون قصر المداولة فيه على المسألة المالية ليضمنوا ديون القطر المصرى ويكلفوا للدائنين أداء حقوقهم وأخذوا على أنفسهم عهدة الإنفاق على الإدارات المصرية مدة من الزمان لترخص لهم الدول الإقامة فى وادى النيل إلى أمد فيكون تفويض الدول حجة لهم فى التصرف وإدارة شئون الحكومة المصرية ما دام السلم مظللاً بلاد أوربا فإذا حدث حادث حرب فى الدول الأوروبية وما هو ببعيد الوقوع تربعوا فى تلك البلاد وأناخوا بكلاكلهم وضربوا بجرانهم على أراضيها وألقوا عصاهم ، هذا سر شفقة الإنجليز على المصريين وهو سر رغبتهم فى وقوف المؤتمر عند شئون المالية».

(١) الخفال: الجمع الكبير.

«هذه المصيبة العظمى والداهية الدهماء التى تتحفز لتتنقض على المصريين هل تمس بحقيقتها جانب ألمانيا ، كلا ، فإن منافع ألمانيا الحقيقية لا تعلق لها بالمسائل المصرية وهى فى الشغل بما هو أهم منها ، وليست دولة (أوستريا) بأقرب إلى المصائب المصرية من ألمانيا ، على أن كلا من الدولتين ليس فى استطاعتهما تأييد فكرها بالعمل لو مست الحوادث المصرية شيئاً من مصالحها ، فإن مواقع الدولتين لا تساعدتهما على الإضرار بدولة الإنجليز ، أما إيطاليا فهى ساكنة الجأش بما تؤمل نواله فى أفريقيا بمساعدة إنجلترا».

سوء الأحوال فى مصر

ونشرت فى عدد ٢٥ رجب سنة ١٣٠١هـ (٢٢ مايو سنة ١٨٨٤م) رسالة جاءتها من مصر تصف سوء الأحوال فى مصر وتذكر طرفاً مما يعانى به المواطنون نتيجة للسياسة الإنجليزية قالت :

كتب إلينا صديق فاضل من خلص المؤمنين بالقطر المصرى قال : إن مأمورى الإنجليز الآخذين بزمam بعض الوظائف المصرية لا يزالون يسعون فى تغرير الأهالى والتحيل عليهم وفسد الدسائس بينهم بطرق مختلفة من الترغيب والترهيب كل ذلك ليرضوهم بطلب الحماية الإنجليزية إلا أن أولئك الأبالسة لا يلاقون فى سعيهم إلا خيبة ، لأن العلماء وأعيان البلاد قد أحاطوا بغايات الإنجليز ومقاصدهم وعلموا أنهم لا يقصدون بالبلاد إلا الشر كما لم ينلها من حلولهم إلا الضر خصوصاً وأن روح الحمية والغيرة الدينية

والوطنية صار لها السلطان الأعظم على نفوس أهالى القطر المصرى فاشتدت أنفتهم من تسلط الإنجليز فى ديارهم ، وقاوموا مطالبهم بعزائم ثابتة وقلوب غير واجفة ، وهذا هو ظننا بل يقيننا فى أبناء القطر المصرى علمائهم وأمرائهم وحكامهم وأعيانهم وأوساطهم بل وسائر طبقاتهم أن لا تسمح نفس واحد منهم بمجاراة الإنجليز فى رغبتهم ، وأن لا يطمئن قلبه بالدخول تحت سيادتهم بل ببقاء شخص منهم فى بلاده وعلى مرمى نظره ، فإن وجد بينهم شخص يتخذ إلهه هواه ويميل مع الباطل فهو ممن يعرف المصريون سيرته فى أفناد^(١) ليله وأطراف نهاره فلا يثقون به .

ومما أخبر به الصادق أن كليفورد لويد يجتهد لتسليم رئاسات البلاد إلى أناس من طبقة يتوهم فيها سقوط الهمة وسخافة الرأى ليتمكن بهم من إجراء بعض مقاصده لكن لم يتسن له نجاح ولئن نجح فى تحويل الرئاسات من نصابها فلا يلاقى ممن يستلمونها إلا مثل ما لاقى من غيرهم فإن الجميع مصريون يفضلون ظلم أبناء وطنهم على عدل الأجنبى ، فكيف لو كان الأجنبى لا يقاس بظلمه ظلم .

إلى أن قال الصديق الفاضل : أما الفلاحون فأحوالهم سيئة : ضيق وضنك وفقر وإعدام مما يفتت الأكباد ويذيب القلوب ويفطر الجماد ، الحكومة مضطرة لطلب الأموال وملجأة إلى تكليف الفلاحين بدفع

(١) الأفناد : الطوائف .

ما عليهم، والأجانب قائمون على اقتضاء ديونهم منهم، والكساد ورخص أسعار الحبوب وثمرات الزراعة لم يجعل فى المحصولات وفاء بضرورات المعيشة فضلاً عن أداء المطلوبات فكيلة القمح بستة قروش والذرة بأربعة وعلى هذا يقاس، ومن ثم تسمع كل يوم تنعاب أغربة الدالين فى فناء ديوان الحقانية^(١) على خراب بيوت الفلاحين هذا ينادى على بيع أراضيه بأسرها وهذا يتفق عليه بمبيع بعضها والآخر بالحجز على أملاكه والحكومة لا تنى فى طلب ضرائبها قبل أوان المحصولات.

أما أحوال المدن فليست بأسعد من أحوال الأرياف خصوصاً من تعديات الأجانب على سكانها فالمنازعات والمخاصمات بين الأجانب والوطنيين يقضى فيها على الوطنى بالتغريم والجزاء ولا يؤخذ على الأجنبى فى شىء وإن كان هو المعتدى، وإن سأل الوطنى أين خصمى فيقال له إنه يحاكم فى محل آخر مع أنه لم يذهب إلى مقام المحاكمة رأساً واكتفى فى فصل الدعوى بأحد الخصمين وهو طرز من الحكم جديد (هذا بعض آثار العدالة الإنجليزية).

وجاء فى خبر صديقنا هذا رواية كثير من المظالم التى أصيب بها أهل القرى من جراء التداخل الإنجليزي فى إدرات الحكومة ضربنا عن ذكرها رعاية لجانب الاختصار بعد وضوحها عند أولى الأمر من المصريين.

(١) يريد المحكمة المختلطة.

أما الأمن فلم يبق له أثر وأما النظام فقد نقص بناؤه واقتلع أساسه واختزن الإنجليز نقاضه فى خزائن الآثار القديمة، فقيوت عصابات اللصوص، وجأهروا بالنهب والسلب وهذا خبر تؤكد روايات الجرائد الوطنية المصرية عربية وأفرنجية فإن جميعها يشتكى الملل والسامة من رواية أخبار السوء كل يوم، إلا أن من غريب الوقائع هجوم لفيف من السارقين على قرية (نشرت) ونواحيها من مديرية الغربية وقتلهم، واحدا وأربعين رجلاً فإن خبر هذه الواقعة إن صح كان دليلاً على بلوغ الاختلال إلى درجة فوق ما كنا نتصور نسأل الله السلامة كما نسأله إبدال عسر المصريين باليسر وهو على كل شيء قدير.

رئيس وزراء مصر

يستأذن للسفر من وزير خارجية بريطانيا

وكتبت فى عدد ٢٥ رجب سنة ١٣٠١هـ (٢٢ مايو سنة ١٨٨٤م) النبأ الآتى:

«إلى اللورد غرانفيل^(١) أن يرخص لنوبار باشا بالسفر إلى أوربا مدة غيبة السير بارننج^(٢) فإن أصر نوبار باشا على طلب الرخصة فإن اللورد غرانفيل يطلب من الخديو أن يستبدله برياض باشا

(١) غرانفيل Granville وزير خارجية بريطانيا وقتئذ.

(٢) أفلين بارننج Evelin Barning المعتمد البريطانى فى مصر الذى صار اللورد كرومر.

أو شريف باشا، هذا كله والإنجليز لا يريدون أن تكون مصر تحت سيادتهم ولا يحبون أن يرفع عليها علم حمايتهم وليس يدري ما الغرض من السيادة والحماية سوى التصرف في الإدارة أو التحكم في أولياء الأمور، هذا وزير مصر الأكبر لا ينال رخصة سفر إلا بإذن من غرائيل ولا يأذن له ويرى أن له أمراً على الخديو باستيزار فلان وعزل فلان، فإن لم تكن هذه سيادة فما هي السيادة؟».

وحدة الكلمة والتحذير من الشقاق

وكتبت المقالة الآتية في عدد ١٠ شعبان سنة ١٣٠١ هـ (٥ يونيو سنة ١٨٨٤ م) تحت عنوان «المؤمن للمؤمن كالبنيان يشد بعضه بعضاً» تنعى فيها تفرق أهواء الأمم الشرقية وتدعوها إلى الاتحاد وتحذرها من الشقاق قالت:

«أمران خطيران تحمل عليهما الضرورة تارة، ويهدى إليهما الدين تارة أخرى، وقد تفيدهما التربية وممارسة الآداب، وكل منهما يطلب الآخر ويستصحبه، بل يستلزمه، وبهما نمو الأمم وعظمتها ورفعتها واعتلاؤها، وهما الميل إلى وحدة تجمع والكلف بسيادة لا توضع، وإذا أراد الله بشعب أن يوجد ويلقى بوانيه (يثبت ويقيم) إلى أجل مسمى أودع في ضائصه (أصوله) هذين الوصفين الجليلين، فأنشأه خلقاً سوياً، ثم استبقى له حياته بقدر ما مكن فيه من الصفتين إلى منتهى أجله.

«كل أمة لا تمد ساعدها لمغالبة سواها لتنال منها بالغلب ما تنمو به بنيتها، ويشد به بناؤها، فلا بد أن تقضم وتهضم وتضمحل ويمحى أثرها من بسيط الأرض، إن التغلب فى الأمم كالتغذى فى الحياة الشخصية، فإذا أهمل البدن من الغذاء وقفت حركة النمو، ثم ارتدت إلى الذبول والنحول، ثم أفضت إلى الموت والهلاك، وليس من الممكن لأمة أن تحفظ قوامها، وتصول على من يليها لتختزل منه ما يكون مادة لنمائها، إلا أن تكون متفقة فى تحصيل ما تحتاج إليه هيئتها، إذا أحسست من أمة ميلا إلى الوحدة فبشرها بما أعد الله لها فى مكنون غيبه من السيادة العليا والسلطة على متفرقة الأمم - إذا تصفحنا تاريخ كل جنس واستقرينا أحوال الشعوب فى وجودها وفنائها، وجدنا هذه سنة الله فى الجمعيات البشرية، حظها من الوجود على مقدار حظها من الوحدة، ومبلغها من العظمة على حسب تطاولها فى الغلب، وما انحط شأن قوم وما هبطوا عن مكانتهم إلا عند لهوهم بما فى أيديهم، وقناعتهم بما تسنى لهم، ووقوفهم على أبواب ديارهم ينظرون طارقهم بالسوء، وما أهلك الله قبيلة إلا بعد ما رزئوا بالافتراق، وابتلوا بالشقاق، فأورثهم ذلاً طويلاً، وعذاباً وبيلاً، ثم فناء سرمدياً.

«الوفاق تواصل وتقارب يحدثه إحساس كل فرد من أفراد الأمة بمنافعها ومضارها، وشعور جميع الآحاد فى جميع الطبقات بما تكسبه من مجد وسلطان، فيلذ لهم كما يلذ أشهى مرغوب لديهم،

وبما تفقده من ذلك ، فيألمون له كما يألمون لأعظم رزء يصابون به ، وهذا الإحساس هو ما يبعث كل واحد على الفكر فى أحوال أمته ، ليجعل جزءاً من زمنه للبحث فيما يرجع إليها بالشرف والسؤدد وما يدفع عنها طوارق الشر والغيلة ، ولا يكون همه بالفكر فى هذا أقل من همه بالنظر فى أحواله الخاصة ، ثم لا يكون نظراً عقيماً حائراً بين جدران المخيلة ، دائراً على أطراف الألسنة ، بل يكون استبصاراً تتبعه عزيمة يصدر عنها عمل يثابر على استكمالها بما يمكن من السعة ، وما تحتمله القدرة على نحو ما يكون فى استحصال مواد المعيشة بلا فرق ، بل تجد الأنفس أن شأن الأمة فى المكان الأول من النظر ، والدرجة الأولى من الاعتبار والشئون الخاصة فى المنزلة الثانية منهما ، ولا تقف فيما تجد عند جلب المصالح ودرء المفاسد لأوقاتها الحاضرة ، بل يأخذ العقلاء منها شيئاً من التفكير ، ويخترطون سيوفاً من الهمة ، ليصيبوا من سعيهم شوارد من القوة ، ونواد من المكنة ، ويستخرجوا دفائن من الثروة ، ويجمعوا ذلك للأمة ، لصيانة حياتها إلى حد العمر اللائق بها ، كما يسعى الحازم جهده لتوفير ما يلزم لمعيشته ، وما يطمئن به قلبه فى دفع حاجته مدة العمر الغالب ، بل يزيد عليه ما فيه الكفاية لأبنائه من بعده ، وأن الدور الأول من أعمار الأمم لا ينقص عن خمسة قرون . ثم تتلوه سائر الأدوار ، وأولها أقصرها وهو سن الطفولة ، وبدء الكمال فيما يليه ، فما أرفع همم العقلاء فى الأمم المستبصرة .

«إذا بلغ الإحساس من مشاعر أفراد الأمة إلى الحد الذى بيناه، رأيت فى الدهماء منهم والخاصة همماً تملو، وشيماً تسمو، واحتراماً يقود، وعزماً يسوق، كل يطلب السيادة والغلب، فقتلاقى همهم، وتلاحق عزائمهم فى سبيل الطلب، فيندفعون للتغلب على الذين يلونهم، كما تندفع السيول على الوهاد، ولا تقف حركتهم دون الغاية مما نهضوا إليه، ويكون نزوهم على الأمم بعد الغلب الأول تدفقاً من الطبع لا يحتاج إلى فكر وروية إلا فى إعداد وسائل الفوز والظفر.

«هذان الأمران: الوفاق والغلب، عمادان قويان، وركنان شديدان من أركان الديانة الإسلامية، وفرضان محتومان على من يستمسك بها، ومن يخالف أمر الله فيما فرض منهما عوقب من مقتته بالخزى فى الدنيا والعذاب فى الآخرة، جاء فى قول صاحب الشرع أن «المؤمن للمؤمن كالبنيان يشد بعضه بعضاً» وأن المؤمن ينزل من المؤمن منزلة أحد أعضائه إذا مس أحدها ألم تأثر له الآخر، وجاء فى نهيه «لا تقاطعوا ولا تدابروا ولا تحاسدوا، وكونوا عباد الله إخواناً» وأنذر من شذ عن الجماعة بالخسران والهلكة، وضرب له مثل الشاة القاصية تكون فريسة للذئاب.

«هذا كله بعد ما أمر الله عباده بالاعتصام بحبله، ونهاهم عن التفرق والتغابن، وامتن عليهم بنعمة الأخوة بعد أن كانوا أعداء، ونطق الكتاب الإلهى ﴿إِنَّمَا الْمُؤْمِنُونَ إِخْوَةٌ﴾ [سورة الحجرات: آية ١٠] وطلب من المخاطبين بآياته أن يبادروا بإصلاح ذات البين

عند التخالف، ثم شدد فى وجوب الإصلاح وإن أدى إلى مقاتلة الباغى فقال ﴿وَلِنْ طَائِفَتَانِ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ اقْتَتَلُوا فَأَصْلَحُوا بَيْنَهُمَا فَإِنْ بَغَتْ إِحْدَاهُمَا عَلَى الْأُخْرَىٰ فَقَاتِلُوا الَّتِي تَبَغَىٰ حَتَّىٰ تَفِيءَ إِلَىٰ أَمْرِ اللَّهِ﴾ [سورة الحجرات: آية ٩] وإنما أمر الله بالدخول فيما اتفق عليه المؤمنون وتوحيد الكلمة الجامعة ﴿وَلَا تَكُونُوا كَالَّذِينَ تَفَرَّقُوا وَاخْتَلَفُوا مِنْ بَعْدِ مَا جَاءَهُمُ الْبَيِّنَاتُ﴾ [سورة آل عمران: آية ١٠٥] وأوعد الكتاب الأقدس كل من انحرف عن سبيل المؤمنين بالعقاب الأليم، فحكم بأن من يتبع غير سبيل المؤمنين يوله ما تولى ويصله جهنم وساءت مصيراً.

«وفى أمره الصريح بإيجاب التعاون على البر والتقوى، ولا بر أحق بالتعاون عليه من تعزيز كلمة الحق وإعلاء منار الأمة، وأخبر الصادق عليه السلام أن «يد الله مع الجماعة» وكفى بالقدرة الإلهية عوناً إذا صح الاجتماع وصدقت الألفة، وقد بلغت مكانة الاتفاق فى الشريعة الإسلامية أسمى درجة فى الرعاية الدينية حتى جعل إجماع الأمة واتفاقها على أمر من الأمور كاشفاً عن حكم الله وما فى علمه، وأوجب الشرع الأخذ به على عموم المسلمين. وعد جحود مروقاً من الدين، وانسلاخاً عن الإيمان. ومن عناية الشارع بأمر الاتفاق قوله عليه السلام «لو دعيت إلى حلف الفضول لفعلت». (حلف الفضول ما كان من هاشم وزهرة وتيم حيث وفدوا على عبد الله بن جدعان وتحالفوا على أن يدفعوا الظلم ويأخذوا الحق من الظالم، وسمى

حلف الفضول لأنهم تحالفوا على أن لا يدعو عند أحد فضلاً يزيد عن حقه ويكون نواله بالظلم إلا أخذه منه وردوه لمستحقه). فهو من حلف الجاهلة، وقد صرح الشارع بقبوله لو دعى إليه. هذا إجمال الأدلة على وجوب الاتفاق وحظر المنابذة والمغابنة بين المسلمين، بل بينهم وبين غيرهم ممن رضى بذمتهم وقبل جوارهم بالمعروف فى شرعهم، فإن سبيل المؤمنين يسعه ولا يضيق عنه.

«وأما السعى لإعلاء كلمة الحق وبسطة الملك وعموم السيادة، فلا تجد آية من آيات القرآن الشريف إلا وهى داعية إليه، جاهرة بمطالبة المسلمين بالجد فيه، حاضرة عليهم أن يتوانوا فى أداء الفروض منه، ومن الأوامر الشرعية أن لا يدع المسلمون تنمية ملتهم، حتى لا تكون فتنة ويكون الدين كله لله، وفى السنة المحمدية والسيرة النبوية مما يضافر آيات القرآن ما جمعه العلماء فى مجلدات يطول عددها - هذا حكم ديننا لا يرتاب فيه أحد من المؤمنين به والمستمسكين بعروته.

«هل يمكن لنا ونحن على ما نرى من الاختلاف والركون إلى الضيم أن ندعى القيام بفروض ديننا؟ كيف ومعظم الأحكام الدينية موقوف إجراؤه على قوة الولاية الشرعية، فإن لم يكن الوفاق والميل إلى الغلب فرضين لذاتهما أفلا يكونان مما لا يتم الواجب إلا به؟ فكيف بهما وهما ركنان قامت عليهما الشريعة كما قدمنا؟ هل لنا

عذر نقيمه عند الله يوم العرض والحساب يوم لا تنفع فيه خلة ولا شفاعة بعد هدم هذين الركنين؟ وأيسر شيء علينا إقامتهما وعديتنا مئتا مليون أو يزيد؟ هل يتيسر لنا إذا خلونا بأنفسنا وجادلنا ضماثرنا أن نقنعها ونرضيها بما نحن عليه الآن؟

«كل هذه الرزايا التي حطت بأقطارنا، ووضعت من أقدارنا، ما كان قاذفنا ببلائها ورامينا بسهامها إلا افتراقنا وتدابرننا والتقاطع الذى نهانا الله ونبيه عنه، لو أدينا حقوقاً تطالبنا بها تلك الكلمة التى تهل بها ألسنتنا، وتطمئن قلوبنا بذكرها، وهى كلمة الله العليا، هل كان يمكن للغرباء أن يمزقوا ممالكنا كل ممزق، وهل كان يلمع سيف العدوان فى وجوهنا، وهل كنا نشيم نيران الأعداء إلا وأقدامنا فى صياصيمهم وأيدينا على نواصيمهم؟

إن لأبناء الأمة الإسلامية يقيناً بما جاء به شرعهم، لكن أليس على صاحب اليقين بدين أن يقوم بما فرض الله عليه فى ذلك الدين؟ ﴿أَحْسِبَ النَّاسَ أَنْ يَبْرُكُوا أَنْ يَقُولُوا ءَامَنَّا وَهُمْ لَا يُفْتَنُونَ ۚ وَلَقَدْ فَتَنَّا الَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ فَلَيَعْلَمَنَّ اللَّهُ الَّذِينَ كَذَبُوا وَلَيَعْلَمَنَّ الْكَذِبِينَ ۚ﴾ [سورة العنكبوت: الآيتان ٢ - ٣].

ولا ريبة فى أن المؤمن يسره أن يعلمه الله صادقاً لا كاذباً، وأى صدق تظهره الفتنة ويمتاز به الصادق من الكاذب إلا الصدق فى العمل؟ هل يود المسلم لو يعمر ألف سنة فى الذل والهوان وهو يعلم أن الازدراء بالحياة الدنيا دليل الإيمان؟ أنرضى ونحن المؤمنون

وقد كانت لنا الكلمة العليا أن تضرب علينا الذلة والمسكنة، وأن يستبد في ديارنا وأموالنا من لا يذهب مذهبنا، ولا يرد مشربنا، ولا يحترم شريعتنا، ولا يرقب فينا إلا ولا ذمة، بل أكبر همه أن يسوق علينا جيوش الفناء حتى يخلى منا أوطاننا ويستخلف فيها بعدنا أبناء جلدته والجالية من أمته؟

«لا. لا. إن المخلصين في إيمانهم الواثقين بوعد الله في نصر من ينصر الله الثابت في قوله ﴿إِنْ تَصُرُّوا إِلَهَ يَصُرْكُمْ﴾ وَبُيِّنَتْ أَقْدَامُكُمْ ﴿٧﴾» [سورة محمد: آية ٧] لا يتخلفون عن بذل أموالهم وبيع أرواحهم، والحق داع والله حاكم والضرورة قاضية، فأين المفر؟

«المبصر بنور الله يعلم أنه لا سبيل لنصر الله وتعزيز دينه إلا بالوفاق وتعاون المخلصين من المؤمنين، هل يسوغ لنا أن نرى أعلامنا منكسة، وأملاكنا ممزقة والقرعة تضرب بين الغرباء على ما بقى من أيدينا ثم لا نبدي حركة، ولا نجتمع على كلمة، وندعى مع هذا أننا مؤمنون بالله وبما جاء به محمد؟ واخجلناه لو خطر هذا ببالنا ولا أظنه يخطر ببال مسلم يجرى على لسانه شاهد الإسلام.

«إن الميل للوحدة والتطلع للسيادة وصدق الرغبة في حفظ حوزة الإسلام كل هذه صفات كامنة في نفوس المسلمين قاطبة، ولكن دهاهم بعض ما أشرنا إليه في أعداد ماضية، فألهاهم عما يوحى به الدين في قلوبهم وأذهلهم أزماناً عن سماع صوت الحق يناديهم من بين جوانحهم، فسهبوا وما غووا، وزلوا وما ضلوا،

ولكنهم دهشوا وتاهوا، فمثلهم مثل جواب المجاهيل من الأرض في الليالي المظلمة، كل يطلب عوناً وهو معه، ولكن لا يهتدى إليه، وأرى أن العلماء العاملين لو وجهوا فكرتهم لإيصال أصوات بعض المسلمين إلى مسامع بعض، لأمكنهم أن يجمعوا بين أهوائهم في أقرب وقت، وليس بعسير عليهم ذلك بعدما اختص الله من بقاء الأرض بيته الحرام بالاحترام، وفرض على كل مسلم أن يحجه ما استطاع، وفي تلك البقعة عشير الله من جميع أجيال المسلمين وعشائره وأجناسهم، فما هي إلا كلمة تقال بينهم من ذوى مكانة في نفوسهم تهتز لها أرجاء الأرض وتضطرب لها عواكن القلوب، هذا ما أعدتهم له العقائد الدينية، فإن أضفت إليه ما أذاب قلوبهم من تعدييات الأجانب، وما ضاقت به صدورهم من غارات الغرباء على بلادهم حتى بلغت أرواحهم التراقي، ذهبت إلى أن الاستعداد بلغ من نفوس المسلمين حدّاً يوشك أن يكون فعالاً. وهو مما يؤيد الساعين في هذا المقصد ويهيئ لهم فوزاً ونجاحاً بعون الله الذى ما خاف قاصده، وهو ربى إليه أدعو وإليه أنيب».

الوسائل لحفظ كيان الدولة

وكتبت في عدد ٢١ ذى القعدة سنة ١٣٠١هـ (١١ سبتمبر سنة ١٨٨٤م) مقالة بعنوان ﴿أَفَلَمْ يَسِيرُوا فِي الْأَرْضِ فَتَكُونَ لَهُمْ قُلُوبٌ يَعْقِلُونَ بِهَا أَوْ آذَانٌ يَسْمَعُونَ بِهَا فَإِنَّهَا لَا تَعْمَى الْأَبْصَارُ وَلَكِنْ تَعْمَى الْقُلُوبُ الَّتِي فِي الصُّدُورِ﴾ [سور الحج: آية ٤٦].

أوضحت فيها أن البلاد التى أصيبت فى كيانه واستقلالها كانت هى الظالة لنفسها إذ كانت تتق بأعدائها الطامعين فيها وتتخذ منهم أولياء فكانوا حربا عليها وأن المترفين فى تلك البلاد كانوا صنائع للاستعمار، وأن القوة والعدل هما أساس الملك. فقالت: «أهلك الله شعوباً، وأباد قبائل، ودمر بلاداً، ولا يزال عدل الله يبدل قومًا بقوم ويأتى لكل حين أناس آخرين، فكم سبقت رحمته غضبه، جعل لكل عمل جزاء، وعين بحكمته لكل حادث سبباً، ﴿وَلَا يَظْلِمُ رَبُّكَ أَحَدًا﴾ (١٩) [سورة الكهف: آية ٤٩]. وليست أفعاله جزافاً، ولا يصدر عنه شىء عبثاً، أمر الله عباده بالسير فى الأرض ﴿قُلْ سِيرُوا فِي الْأَرْضِ ثُمَّ انظُرُوا كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الْمُكْذِبِينَ﴾ (١١) [سورة الأنعام: آية ١١] ليريهم قضاءه الحق وحكمه العدل فيمن سلف ومن خلف، فيطيعوا أوامره، ويقفوا عند حدود شرائعه، ويفوزوا بخير الدنيا وسعادة الآخرة.

من كان له قلب يعقل وعين تبصر، وعقل يفقه، وتتبع حوادث العالم، وتدبر كيفية انقلاب الأمم وخاض فى تواريخ الأجيال الماضية، واعتبر بما قص الله عليه فى كتابه المنزل يحكم حكماً لا يخالفه ريب، بأنه ما حاق السوء بأمة وما نزلت بها نازلة البلاء، وما مسها الضر فى شىء، إلا وكانت هى الظالة لنفسها بما تجاوزت حدود الله، وانتهكت حرماته، ونبذت أوامره العادلة،

وانحرفت عن شرائعه الحقّة، وحرّفت الكلم عن مواضعه، وأولت من كلامه تعالى على حسب الأهواء والشهوات.

«كما أن للأغذية والأدوية واختلاف الفصول والأهوية أثرًا ظاهرًا في الأمزجة بتقدير العزيز العليم، كذلك اقتضت حكمة الله أن يكون لكل عمل من الأعمال الإنسانية ولكل طور من أطوار البشر أثر في الهيئة الاجتماعية، ولهذا كان من رحمته بعباده تحديد الحدود، وتقرير الأحكام ليتبين الخير من الشر، ويتميز النفع من الضر، فأرسل الرسل، وأنزل الكتب، فمن خالف الأوامر الإلهية فقد ظلم نفسه، فليستعد لخزي الدنيا وعذاب الآخرة.

«إن تأثير الفواعل الكونية في أطوار الحياة قد يخفى سببه حتى على الطبيب الماهر، أما تأثير أحوال بنى الإنسان في هيئة اجتماعهم، فيسهل الوقوف على سره لكل ذى إدراك، إن لم تكن عين بصيرته عمياء.

«ألم تر أن الله جعل اتفاق الرأى فى المصلحة العامة، والاتصال بصلة الألفة فى المنافع الكلية سببًا للقوة واستكمال لوازم الراحة فى هذه الحياة الدنيا، والتمكن من الوصول لخير الأبد فى الآخرة. وجعل التنازع والتغابن علة للضعف، وداعيًا للسقوط فى هوة العجز عن كل فائدة دنيوية أو أخروية، ومهيئًا لوقوع المتنازعين فى مخالب العاديات من الأمم. فمن نظر نظرة فى أحوال الشعوب، ماضيها وحاضرها، ولم يكن مصابًا بمرض قلب، وعمى البصيرة،

أدرك سر أمر الله في قوله تعالى: ﴿وَأَعْتَصِمُوا بِحَبْلِ اللَّهِ جَمِيعًا﴾
 [سورة آل عمران: آية ١٠٣] وسر نهيه في قوله ﴿وَلَا تَقْرَفُوا﴾
 [سورة آل عمران: آية ١٠٣] وقوله ﴿وَلَا تَنَزَّعُوا فَإِن نَفْسُكُمُ أَنْ تَنَازَعُوا فَتَفْشَلُوا وَتَذْهَبَ
 رِيحُكُمْ﴾^(١) [سورة الأنفال: آية ٤٦].

«إن الله تعالى جعل الركون إلى من لا يصح الركون إليه، والثقة بمن لا تنبغي الثقة به، سبباً في اختلال الأمن وفساد الحال، فمن وثق في عمله بمن ليس منه في شيء، ولا تجمععه معه جامعة حقيقية، ولا تصل به رابطة صحيحة، وليس في طبعه ما يبعثه على رعاية مصلحته، أو كتم سره، ولا ما يحمله على بذل الجهد في جلب منفعته، ودفع المضار عنه، فلا ريب يفسد حاله، ويسوء مآله، وإن كان مليكاً ضاع ملكه، أو أميراً بطل أمره، والحوادث شاهدة، وأحوال المغرورين ناطقة، فمن لم يرزأ بعمى البصيرة يدرك بأول التفات سر نهى الله تعالى في قوله ﴿لَا تَنَجِّدُوا عَدُوِّي وَعَدُوَّكُمْ أَوْلِيَاءَ تَلْقَوْنَ إِلَيْهِم بِالْمُودَّةِ وَقَدْ كَفَرُوا بِمَا جَاءَكُمْ مِنَ الْحَقِّ﴾ [سورة المتحنة: آية ١] وقوله ﴿لَا تَنَجِّدُوا بَطَانَةَ مِن دُونِكُمْ لَا يَأْلُونَكُمْ خَبَالًا وَدُّوا مَا عَنِتُّمْ قَدْ بَدَتِ الْبَغْضَاءُ مِنْ أَفْوَاهِهِمْ وَمَا تُخْفِي صُدُورُهُمْ أَكْبَرُ﴾
 [سورة آل عمران: آية ١١٨] وسائر نواهيه المبنية على الحكمة البالغة المرشدة إلى مصالح الدارين.

(١) جاهكم وعظمتكم وعلو كلمتكم.

«لكل شخص فى طبقته من أمته عمل مفروض عليه، وواجب يلزمه القيام به، ليحفظ بذلك لنفسه حياة طيبة فى هذه الدنيا، ويعد لها مآلاً صالحاً فى الآخرة، وهو إنسان له قلب واحد، لو جعل معظم همه فى شىء فاته سائر الأشياء، فلو توغل فى الشهوات، وبالغ فى الترف، وبطر فيما أنعم عليه، فقد أغفل فرائضه، وأضر بنفسه، وحرّم من منفعه، وحل به من عقاب الله أشد الوبال، وخسر الدنيا والآخرة معاً، وربما مست آثار أعماله بالسوء من يجاوره، واحترق بناره الموقدة بفساد أخلاقه وانحرافه عن سنن الحق من يساكنه فى بلدته، أو يواطنه فى مدينته.

وهذه آثار المترفين فى كل أمة تنطق بما لا يعجم إلا على أذن صماء، وتشهد بما لا يخفى إلا على بصيرة كمهأء^(١)، وأن فيما قص الله علينا من أحوال المترفين لأكبر عبرة ﴿وَكَمْ أَهْلَكْنَا مِنْ قَرِيبٍ بِطَرَفِ مَعِيشَتِهِمْ فَبِئْسَ مَا كُنْتُمْ تَكُونُونَ﴾ [سورة القصص: آية ٥٨] .. ﴿حَتَّىٰ إِذَا أَخَذْنَا مُتْرَفِيهِم بِالْعَذَابِ إِذَا هُمْ يَخِرُّونَ﴾ [سورة المؤمنون: الآيتان ٦٤ - ٦٥] .. ﴿ذَلِكُمْ بِمَا كُنْتُمْ تَفْرَحُونَ فِي الْأَرْضِ بِغَيْرِ الْحَقِّ وَبِمَا كُنْتُمْ تَمْرَحُونَ﴾ [سورة غافر: آية ٧٥] هذه عواقب اللاهين بحظوظهم عما أوجب

(١) الأكمه: من يفقد نور عينيه منذ ولادته. والأنشى كمهأء.

الله عليهم ﴿ وَمَنْ أَعْرَضَ عَنْ ذِكْرِي فَإِنَّ لَهُ مَعِيشَةً ضَنْكًا وَنَحْشُرُهُ يَوْمَ الْقِيَمَةِ أَعْمَى ﴾ [سورة طه: آية ١٢٤].

«ما أوتى الإنسان من العلم إلا قليلا. لا يمكن الإنسان وحده أن يحيط بوجوه المنافع الخاصة بنفسه، ولا أن يطلع على منافع فوائده ليكسبها، أو يكشف مكانم مضارة فيتقنها، خلق الإنسان ضعيفاً فأرشده الله للاستعانة بغيره من بنى جنسه ﴿ وَجَعَلْنَاكُمْ شُعُوبًا وَقَبَائِلَ لِتَعَارَفُوا ﴾ [سورة الحجرات: آية ١٣] خلقنا محتاجين للعون مضطرين للنصير وهدانا ربنا للتعاون والتناصر.

«هذا مما يحكم به العقل فى المصالح الخاصة، فكيف لو كان شخص ولاة الله رعاية أمته، وألقى إليه بزمام شعب مصالحه العامة تحت إرادته، وهو الوازع فيه والواضع والرافع. لا ريب أن مثل هذا الشخص أحوج إلى المشورة والاستفادة من آراء العقلاء، وهو أشد افتقاراً إلى ذلك ممن يكون سعيه لمتعلقات ذاته وتكون سعة دائرة افتقاره إلى التشاور على مقدار سعة سلطانه، وقد أمر الله نبيه المعصوم عن الخطأ بالمشورة تعليماً وإرشاداً فقال ﴿ وَشَاوِرْهُمْ فِي الْأَمْرِ ﴾ [سورة آل عمران: آية ١٥٩] وقال فيما امتدح به المؤمنين ﴿ وَأَمْرُهُمْ شُورَى بَيْنَهُمْ ﴾ [سورة الشورى: آية ٣٨].

أى بصر يزوغ عن هذا الصراط المستقيم؟ وأى بصيرة لا تهتدى إلى هذا المنهج القويم؟ ﴿ أَفَلَمْ يَذَّبُوا الْقَوْلَ إِذْ جَاءَهُمْ مَا بُرِّئُوا بِآبَاءِهِمْ ﴾ [سورة المؤمنون: آية ٦٨].

«إن وزاع البلاد والقائم على الملك لو لمح لمحة إلى نفسه لرأى أن بلاده فى كل وقت معرضة لأطماع الطامعين، وأن الحرص المودع فى طباع البشر يحرك جيرانه كل آن للسطوة على ممالكه ليزلوا قومه، وليستعبدوا أهله، ويستأثروا بمنافع أرضهم، وثمار كدهم، ويمنحوها أبناء جلدتهم. فعليه وعلى من يشركه فى أمره من عماله، والحكام النائبين عنه فى إيالاته، وقواد جيشه، وعلى كل أرباب الرأى، ومن بهم قوام الملك، أن يستعدوا لدفع طوارئ العدوان، ورفع نوازل الغارات الأجنبية، فلو فرطوا فى إعداد لوازم الدفاع، أو تساهلوا فيما يكف عنهم سيل الأطماع، أو تهاونوا فيما يشد قوتهم، ويقوى شوكتهم، بأى وجه كان، ومن أى نوع كان، فقد عرضوا ملكهم للهلاك، وألقوا بأنفسهم فى مهاوى الأخطار.

«هذا مما يفهمه الأبله والحكيم، ويصل إليه إدراك الجاهل والعليم. وهو سر الإفصاح والإبهام فى قوله تعالى ﴿وَأَعِدُّوا لَهُمْ مَا اسْتَطَعْتُمْ مِنْ قُوَّةٍ﴾ [سورة الأنفال: آية ٦٠] أمر بإعداد القوة ووكّلها إلى الطاقة وحكم الاستطاعة، على حسب ما يقتضيه الزمان. وما تكون عليه حالة من تخشى غوائلهم، هذا أمر الله ينبه الغافل، ويذكر الذاهل، ﴿فَالْهَؤُلَاءِ الْقَوْمُ لَا يَكَادُونَ يَفْقَهُونَ حَدِيثًا﴾ [سورة النساء: آية ٧٨].

«إعطاء كل ذى حق حقه، ووضع الأشياء فى مواضعها، وتفويض أعمال الملك للقادرين على أدائها، مما يوجب صيانة الملك وقوة

السلطان، ويشيد بناء السلطة، ويحكم دعائم السطوة، ويحفظ نظام الداخل من الخلل، ويشفي نفوس الأمة من العلل. هذا مما تحكم به بداهة العقل، وهو عنوان الحكمة التي قامت بها السموات والأرض، وثبت نظام كل موجود، وهو العدل المأمور به على لسان الشرع في قوله تعالى ﴿إِنَّ اللَّهَ يَأْمُرُ بِالْعَدْلِ وَالْإِحْسَانِ﴾ [سورة النحل: آية ٩٠] كما أن الجور عن الاعتدال والميل عن سبيل الاستقامة في كل جزء من أجزاء العالم يوجب فناءه واضمحلاله، كذلك الجور في الجمعيات البشرية يسبب دمارها، لهذا حثت الأوامر الإلهية على العدل، وكثر النهى في الكتاب المجيد عن الظلم والجور، والحكام أولى من توجه إليهم الأوامر والنواهي في هذا الباب، العدل هو الحكمة التي امتن الله بها على عباده، وقرنها بالخير الكثير فقال ﴿وَمَنْ يُؤْتَ الْحِكْمَةَ فَقَدْ أُوتِيَ خَيْرًا كَثِيرًا﴾ [سورة البقرة: آية ٢٦٩] وهي مظهر من أجل مظاهر صفاته العليا، فهو الحكم العدل وهو اللطيف الخبير.

«من سار في الأرض، وتتبع تواريخ الأمم، وكان بصير القلب، علم أنه ما انهدم بناء ملك، ولا انقلب عرش مجده إلا لشقاق واختلاف، أو ثقة بمن لا يوثق به، وتخلل العنصر الأجنبي، أو استبداد في الرأي، واستنكاف عن المشورة، وإهمال في إعداد القوة، والدفاع عن الحوزة، أو تفويض الأعمال لمن لا يحسن أداءها، ووضع الأشياء في غير مواضعها، فيكون جور في الحكم، واختلال في

النظام، وفي كل ذلك حيد عن سنن الله، فيحل غضبه بالخاطئين، وهو أحكم الحاكمين.

«لو تدبرنا آيات القرآن، واعتبرنا بالحوادث التي أملت بالممالك الإسلامية، لعلمنا أن فينا من حاد عن أوامر الله وضل عن هديه، ومنا من مال عن الصراط المستقيم الذي ضربه الله لنا، وأرشدنا إليه، وبيننا من اتبع أهواء الأنفس وخطوات الشيطان، ﴿ذَلِكَ بِأَنَّ اللَّهَ لَمْ يَكُ مُغَيِّرًا نِعْمَةً أَنْعَمَهَا عَلَى قَوْمٍ حَتَّى يُغَيِّرُوا مَا بِأَنْفُسِهِمْ وَأَنَّ اللَّهَ سَمِيعٌ عَلِيمٌ﴾ [سورة الأنفال: آية ٥٣].

فعلى العلماء الراسخين وهم روح الأمة، وقواد الملة المحمدية، أن يهتموا بتنبيه الغافلين عما أوجب الله، وإيقاظ النائمة قلوبهم عما فرض الدين، ويعلموا الجاهل، ويزعجوا نفس الذاهل، ويذكروا الجميع بما أنعم الله به على آبائهم، وليستلفتوهم إلى ما أعد الله لهم لو استقاموا، ويحذروهم سوء العاقبة لو لم يتداركوا أمرهم بالرجوع إلى ما كان عليه النبي وأصحابه، ورفض كل بدعة، والخروج عن كل عادة سيئة، لا تنطبق على نصوص الكتاب العزيز، ويقصوا عليهم أحوال الأمم الماضية، وما نزل بها من قضاء الله عندما حادت عن شرائعه، ونبذت أوامره ﴿فَإِذَا قَهُمُ اللَّهُ الْحِزْبَ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَلَعَذَابُ الْآخِرَةِ أَكْبَرُ لَوْ كَانُوا يَعْلَمُونَ﴾ [سورة الزمر: آية ٢٦].

«على العلماء أن يزيلوا اليأس بتذكيرهم وعد الله ووعد الحق في قوله تعالى ﴿وَعَدَ اللَّهُ الَّذِينَ آمَنُوا مِنكُمْ وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ لَيَسْتَخْلِفَنَّهُمْ فِي الْأَرْضِ كَمَا اسْتَخْلَفَ الَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ وَلَيُمَكِّنَنَّ لَهُمْ دِينَهُمُ الَّذِي ارْتَضَىٰ لَهُمْ وَلَيُبَدِّلَنَّهُم مِّن بَعْدِ خَوْفِهِمْ أَمْنًا﴾ [سورة النور: آية ٥٥]. هذه وظيفة العلماء الراسخين. وما هم بقليل بين المسلمين. ولا نظنهم يتهاونون فيما فرض الله عليهم. ووكّل إلى ذمتهم. وهم أمناء الدين وحملة الشرع ورافعو لواء الإسلام. وأوصياء الله على المؤمنين. أعانهم الله على خير أعمالهم ونفع المؤمن بإرشادهم».

ولاء الخديو توفيق للاحتلال

وكتبت في عدد ٢٢ شوال سنة ١٣٠١ هـ (١٤ أغسطس سنة ١٨٨٤م النبذة الآتية بعنوان توفيق باشا).

«يتوكأ الإنجليز على توفيق باشا في حركتهم بمصر ويتخذونه آلة لتخريب بلاده وهدم ملكه، وما يكون من شر ينسبونه إليه وما عساه يوجد من خير يصلون نسبته بهم ويردونه إلى أنفسهم. وفيما بين ذلك يبغضون إليه الولاية الإسلامية ويحببون إليه إغفال الأصول الدينية، وهو يميل معهم ويمدهم في مقاصدهم ويطوع البلاد لهم بما بقى له من السلطة الصورية، كما يتظاهر بالتدين والمحافظة على الصلوات، فإن كان باطنه يطابق ظاهره وكان معتقداً بدين الإسلام فعليه أن يتنحى عن الأمر ويترك الملك لمن يستطيع إنقاذه مما هو فيه فتبرأ ذمته من العار الذي يلحقه ويلحق بيت

محمد على من تصرفه، فإن لم يكن هذا فعله أن يجهر بعقيدته ويقاوم الإنجليز بما فى جهده ويموت شهيداً فى سبيل دينه ووطنه، وإلا فليس يغنى عنه من الله شيئاً أن يظهر عند أهل خاصته وحاشيته أنه ناظم على الإنجليز كاره لوجودهم فى بلاد مصر ويود لو يخرجون كما أنبأنا الأخبار من القطر المصرى.

إذا تمادى توفيق باشا فى سيره الملتوى فعلى المصريين أن لا يقعوا صيداً فى يد الإنجليز بهذه الحباله البالية وهذا الفخ الواهن ولينظروا فى شئونهم وما توجهه عليهم فروض دينهم، وإلا فما الله بغافل عنهم.

وفى هذا المعنى كتبت الجريدة المقالة الآتية فى نفس العدد:

«كثيراً ما أتينا فى جريدتنا على بيان الإنجليز فى تملك الهند وتذليلهم لأهاليه وذكرنا أن سيرة الحكومة الإنجليزية فى افتتاح البلاد لا تشابه سير الفاتحين الذين يزحفون بخيلهم ورجلهم على الأقطار فيقتلون ويقتلون حتى يتغلبوا على من يريدون، وقلنا إن الإنجليز ملكوا نحو ثلث العالم بلا سفك دماء غزيرة ولا صرف أموال وافرة وإنما ملكوا ما ملكوا بسلاح الحيلة، يدخلون فى كل بلد أسوداً ضاربة فى جلود ضأن ثاغية، يعرضون أنفسهم فى صورة خدمة صادقين وآمنه ناصحين طالبين للراحة مقومين للنظام، نادينا مراراً بأن الإنجليز إذا أرادوا التدخل فى ملك للشركيين ورأوا أن القائم به رجل حاذق بصير وأن وجوده فى الملك يبطل سيرهم إلى ما يقصدون بادروا إلى التشويش عليه، فإما أن يفسدوا عليه قلوب رعيته ويثيروا عليه أحقادها أو يغروا أحد أعضاء العائلة المالكة

بالعصيان وطلب الملك ليجدوا فى ذلك وسيلة للدخول فى الأمر. أو يتفقوا مع الوزراء على خلع صاحب السلطة ثم ينصبوا بدله إما ضعيفاً أحقق وإما صبيّاً لم يبلغ الرشد، إما من أبناء المالك أو أقاربه - ليتمكنوا من بلوغ مقاصدهم تحت علمه ويبلغوا غاياتهم باسمه ويقطعوا المسافة الطويلة فى مدة قصيرة بلا ممانع ولا عائق مع إصابتهم جزيل الأجر على ما عملوا فى بداية العمل. إلى أن قالت:

من أدق رجال الحكومة الإنجليزية فى فن الحيلة وأمهرهم فى صناعة الخدعة وأطولهم باعاً فى النفاق وأحذقهم فى اختراع الوسائل لسلب الأملاك من أربابها وأشهرهم فى عداوة المسلمين ذلك اللورد المحموم (نور ثبروك)^(١). كان هذا الرجل البارح حاكماً فى الهند. فأذاق أهاليه مر العذاب فى كؤوس المحبة والوداد. كم خرب بيوتاً وقلب عروشاً وكم خفض ربيعاً وأذل عزيزاً وهو فى جميع سيئاته يبكى بكاء الشفقة ويسكب دموع الرحمة على الهنديين ويقول إننى أول إنجليزى تهمة رفاة أهل الهند وأننى وحيد بين الإنجليز بمحبة الهنود والسعى فيما يعود عليهم

(١) اللورد نيوتبروك Lord Northbrook حاكم الهند العام السابق وقد أوفدته إنجلترا إلى مصر فى أغسطس سنة ١٨٨٤م ومهمته درس الحالة فى مصر وتعرف «النصائح» التى ترى بذلها للحكومة المصرية لكى تستأنف بحث ما أخفق فيه مؤتمر لندن. وقد أكرم الخديو توفيق وفادته. وأخذ يزور المصالح والدواوين ويستقبل الموظفين والأعيان كأنه الحاكم بأمره.

بالصلاح والنجاح وإننى أستغفر الله إن كنت قصرت فى عمل يوصل بهم إلى الفلاح، وينادى فى الهنديين بقوله: وأسفاه إنكم إلى اليوم ما عرفتمونى ولا أحطتم بما حواه ضميرى من إرادة الخير لكم هذا هو الكاهن الحاذق فى وعظه «دونه فى النفاق عبد الله بن أبى بن سلول رأس المنافقين فى الإسلام» إن الحكومة الإنجليزية عرفت قدره فى براعته ومعرفته بوجوه المكر وخبرته بأحوال الأمراء الشرقيين وسعة علمه بكيفيات التصرف فى عقولهم وأهوائهم وطرق أخذهم من حيث لا يشعرون - واعترفت له حكومته بصدق الطوية فى معاداة المسلمين. لأجل هذا قررت أن تبعثه على مصر وعزمت على إرساله إليها مفوضاً من قبلها يفعل ما يشاء، ولكن لا نظن حبالته الخداعية تصرع فطانة المصريين وتأخذ عقولهم، فإن تسنى له نجاح ورضى المصريون على أنفسهم عار الذل ووصمة الضيم فلا يكون إلا باستعمال توفيق باشا آلة فى جميع أعماله يستخدمه لإدخال مصر فى ملك الحكومة الإنجليزية، يلقنه الأوامر السامية ويلهمه الإرادات السنية لتذليل أهل بلاده وسوق المصريين لقتل إخوانهم وفتح البلاد الثائرة وإقرار السلطة فيها للحكومة الإنجليزية، فإن تم له ما يريد من تسكين الفتن وتقريب المصريين للرضاء بحكومة تنفر منها طباعهم عمد إلى خلع توفيق باشا بأية علة وطلب تولية ابنه عباس لكونه ولدًا صغيرًا لم يبلغ الحلم واستند فى ذلك إلى الفرمانات السلطانية «يحترمونها إذا

وافقت أغراضهم» وجعل نوبار باشا ديواناً له، نوبار باشا لا يقصر فى هذا العمل ولا يألو جهداً فى إبلاغه إلى نهايته، نوبار باشا رجل لا هو مسلم فيغار على دينه ولا هو مصرى فيخشى على وطنه ولا هو عربى فتأخذه النعرة على جنسه، وبهذا الطريق ينال سلطة فى القطر المصرى مدة لا تنقص عن الباقي من عمره، ويكون فى أمان من العزل تحت ظل الحكومة الإنجليزية.

إلى أن قالت:

هذا هو نور ثبروك الذى تريد حكومة إنكلترا أن ترمى به مصر، وهذا هو الإصلاح الذى يقصد إجراؤه فيها، لكن رجاءنا فى المسلمين وأملنا فى المصريين وقوة إيماننا بوعود الله وصدق النبأ عما تكنه الحوادث المصرية وتألب الدول على معاكسة الحكومة الإنجليزية، كل هذا يبشرنا بخيبة هذا الغادر فى قصده. والله لا يهدى كيد الخائنين.

وفى عدد ٢١ ذى القعدة سنة ١٣٠١هـ (١١ سبتمبر سنة ١٨٨٤م) كلمة جاء فيها تحت عنوان:

تعظيم توفيق باشا نور ثبروك

«ورد خبر من القاهرة بوصول اللورد نور ثبروك إليها. وحصلت الملاقاة الرسمية بينه وبين توفيق باشا وقدم إليه رقيماً من اللورد (غرانفيل) يؤذن أن اللورد نورثبروك هو الوكيل الأعلى للحكومة الإنجليزية فى القطر المصرى ويطلب من الحكومة المصرية أن

تساعده فى حل المشاكل الحالية خصوصاً المسائل المالية، فأظهر توفيق باشا غاية المسرة من تعيينه بهذه الوظيفة وأكد له خلوص الوداد وكمال الرضا بجميع مطالبه».

«يظهر أن توفيق سر بقدوم اللورد (نورثبروك) وإن لم يكن بينه وبينه معرفة خصوصية ولا له سابقة علم بأحواله ولا بما يريد أن يعمل فى بلاده، هذا يمكن ولكن ليت شعرى ماذا يجنى هذا الخديو الشاب من مرآضة هذا المخادع وماذا يصيبه من سهام حيله؟ بيناً فى بعض الأعداد الماضية بعض صفات هذا اللورد وطرفاً من أعماله فى الهند، ونذكر الآن عملاً آخر منها:

طلب وهو حكمدار الهند أن يمكن السلطة الإنجليزية من مملكة (كابورتال) وهى مملكة واسعة تتأخم لاهور و(بتيالة) فادعى على مهرجتها (ملكها) أنه مجنون وهو فى رشاد عقله واعتدال مزاجه وخلعه بهذه الدعوى وسجنه فى (بكسو) حتى مات حتف أنفه وقيل بالسم، وكان هذا الملك المخلوع ابن «راندهيرسك» ونصب بدله ولداً صغيراً من أولاد كاتب من كتاب ذلك الملك ليعد المملكة بذلك للدخول فى حوزة الحكومة الإنجليزية.

«كانت الحكومة الإنجليزية تركت لبعض الرجوات المخلوعين غابات صغيرة من بقايا أملاكهم للصيد، فكان أولئك المساكين يسلون أنفسهم على ضياع ممالكهم بصرف بعض الزمان فيها، فلما جاء اللورد (نورثبروك) حاكماً فى الهند رآها كثيرة عليهم فنزعها من أيديهم وحرّمهم من هذه المنفعة الزهيدة، هذا اللورد

هو الذى طلب (سميع الله خان) الدهرى ليكون معيناً له فى مصر على إرضاء المصريين بحكومة الإنجليز، وهو الذى أعطى المبالغ الوافرة للمعلم (بالمر) لينثرها بين العرب حتى يثوروا أيام الحرب المصرية، كما أخبرنا الثقة الصادق من لوندرة، ولكن العرب قتلوا رسوله وشنق به أشخاص فى مصر بلا جرم، هذا اللورد هو الذى يبتهج توفيق باشا بقدومه، صان الله الأراضى المصرية المقدسة من شر هذا المحتال».

سنة الله فى الأمم

ونشرت فى عدد ٦ ذى الحجة سنة ١٣٠١هـ (٢٥ سبتمبر سنة ١٨٨٤م) مقالة تحت عنوان ﴿إِنَّ اللَّهَ لَا يَغَيِّرُ مَا بِقَوْمٍ حَتَّى يُغَيِّرُوا مَا بِأَنْفُسِهِمْ﴾ [سورة الرعد: آية ١١]، ﴿ذَلِكَ بِأَنَّ اللَّهَ لَمْ يَكْ مُغَيِّرًا نِعْمَةً أَنْعَمَهَا عَلَى قَوْمٍ حَتَّى يُغَيِّرُوا مَا بِأَنْفُسِهِمْ﴾ [سورة الأنفال: آية ٥٣]. «تلك آيات الكتاب الحكيم، تهدى إلى الحق وإلى صراط مستقيم، ولا يرتاب فيها إلا القوم الضالون».

هل يخلف الله وعده ووعيده وهو أصدق من وعد وأقدر من أوعده؟
هل كذب الله رسله؟ هل ودع أنبياءه وقلاههم؟ هل غش خلقه وسلك بهم طريق الضلال؟ نعوذ بالله!

هل أنزل الآيات البينات لغواً وعبثاً؟ هل افترت عليه رسله كذباً؟ هل اختلقوا عليه إفكاً؟ هل خاطب الله عبيده برموز لا

يفهمونها وإشارات لا يدركونها؟ هل دعاهم إليه بما لا يعقلون؟
نستغفر الله!

أليس قد أنزل القرآن عربياً غير ذى عوج، وفصل فيه كل أمر،
وأودعه تبلياً لكل شيء؟ تقدست صفاته وتعالى عما يقول الظالمون
علواً كبيراً، هو الصادق فى وعده وووعيده، ما اتخذ رسولاً كذاباً،
ولا أتى شيئاً عبثاً، وما هدانا إلا سبيل الرشاد، ولا تبديل لآياته،
تزول السموات والأرض ولا يزول حكم من أحكام كتابه الذى ﴿لَا
يَأْتِيهِ الْبُطْلُ مِنْ بَيْنِ يَدَيْهِ وَلَا مِنْ خَلْفِهِ﴾ [سورة فصلت: آية ٤٢].

«يقول الله ﴿وَلَقَدْ كَتَبْنَا فِي الزُّبُورِ مِنْ بَعْدِ الذِّكْرِ أَنَّ الْأَرْضَ
يَرِثُهَا عِبَادِيَ الصَّالِحُونَ﴾» [سورة الأنبياء: آية ١٠٥]،
ويقول ﴿وَلِلَّهِ الْعِزَّةُ وَلِرَسُولِهِ وَلِلْمُؤْمِنِينَ﴾ [سورة المنافقون:
آية ٨]، ويقول ﴿وَكَانَ حَقًّا عَلَيْنَا نَصْرُ الْمُؤْمِنِينَ﴾ [سورة الروم:
آية ٤٧]، ويقول ﴿لِيُظْهِرَهُ عَلَى الدِّينِ كُلِّهِ وَكُفًى بِاللَّهِ شَهِيدًا﴾ [سورة
الفتح: آية ٢٨].

هذا ما وعد الله فى محكم الآيات مما لا يقبل تأويلاً، ولا ينال
هذه الآيات بالتأويل، إلا من ضل عن السبيل، ورام تحريف الكلام
عن مواضعه، هذا عهده إلى تلك الأمة المرحومة، ولن يخلف الله
عهده، وعدها بالنصر والعزة وعلو الكلمة، ومهد لها سبيل ما
وعدها إلى يوم القيامة، وما جعل الله لمجدها أمداً، ولا لعزتها حداً.

«هذه أمة أنشأها الله عن قلة، ورفع شأنها إلى ذروة العلى، حتى ثبتت أقدامها على قنن الشامخات، ودكت لعظمتها عوالي الراسيات، وانشقت لهيبتها مرائر الضاريات، وذابت للرعب منها أعشار القلوب، هال ظهورها الهائل كل نفس، وتحير في سببه كل عقل، واهتدى إلى السبب أهل الحق فقالوا: قوم كانوا مع الله فكان الله معهم، جماعة قاموا بنصر الله واسترشدوا بسنته فأمدهم بنصر من عنده. هذه أمة كانت في نشأتها فاقدة الذخائر، معوزة من الأسلحة وعدد القتال، فاخترقت صفوف الأمم واختطت ديارها، ولا دفعتها أبراج المجوس وخنادقهم، ولا صدتها قلاع الرومان ومعاقلمهم، ولا عاقها صعوبة المسالك، ولا أثر في همتها اختلاف الأهوية، ولا فعل في نفوسها غزارة الثروة عند من سواها، ولا راعها جلالة ملوكهم، وقدم بيوتهم، ولا تنوع صنائعهم، ولا سعة دائرة فنونهم، ولا عاق سيرها أحكام القوانين ولا تنظيم الشرائع، ولا تقلب غيرها من الأمم في فنون السياسة.

كانت تطرق ديار القوم فيحتقرون أمرها، ويستهيئون بها. وما كان يخطر ببال أحد أن هذه الشرذمة القليلة تززع أركان تلك الدول العظيمة وتمحو أسماءها من لوح المجد، وما كان يختلج بصدر أن هذه العصابة الصغيرة تقهر تلك الأمم الكبيرة وتمكن في نفوسها عقائد دينها، وتخضعها لأوامرها وعاداتها وشرائعها، لكن كان كل ذلك، ونالت تلك الأمة المرحومة على ضعتها ما لم

تنزله أمة سواها، نعم قوم صدقوا ما عاهدوا الله عليه فوفاهم أجورهم
مجدًا في الدنيا، وسعادة في الآخرة.

«هذه الأمة يبلغ عددها اليوم زهاء مائتي مليون من النفوس،
وأراضيها آخذة من المحيط الأتلانتيكي إلى أحشاء بلاد الصين،
تربة طيبة، ومنابت خصبة، وديار رحبة، ومع ذلك نرى بلادها
منهوبة، وأموالها مسلوبة، يتغلب الأجانب على شعوب هذه الأمة
شعبًا شعبًا، ويتقاسمون أراضيها قطعة بعد قطعة، ولم يبق لها
كلمة تسمع، ولا أمر يطاع، حتى إن الباقين من ملوكها يصبحون كل
يوم في ملمة، ويمسسون في كربة مدلهمة، ضاقت أوقاتهم عن سعة
الكوارث التي تلم بهم، وصار الخوف عليهم أشد من الرجاء لهم.
«هذه هي الأمة التي كانت الدول العظام يؤديين لها الجزية
عن يد وهن صاغرات، استبقاء لحياتهن، وملوكها في هذه الأيام
يرون بقاءهم في التزلف إلى تلك الدول الأجنبية، يا للمصيبة ويا
للرزية!!

«أليس هذا بخطب جلل، أليس هذا ببلاء نزل».

ما سبب هذا الهبوط، وما علة هذا الانحطاط؟ هل نسى الظن
بالعهود الإلهية؟ معاذ الله! هل نستئيس من رحمة الله ونظن أن قد
كذب علينا؟ نعوذ بالله!

هل نرتاب في وعده بنصرنا بعد ما أكده لنا؟ حاشاه سبحانه لا
كان شيء من ذلك ولن يكون، فعلينا أن ننظر لأنفسنا ولا لوم لنا إلا

عليها، إن الله تعالى برحمته قد وضع لسير الأمم سنناً متبعة ثم قال ﴿وَلَنْ نَجِدَ لِسُنَّةِ اللَّهِ تَبْدِيلًا﴾ [سورة الأحزاب: آية ٦٢].

«أرشدنا الله سبحانه في محكم آياته إلى أن الأمم ما سقطت من عرش عزها، ولا بادت ومحي اسمها من لوح الوجود، إلا بعد نكوبها عن تلك السنن التي سنّها الله على أساس الحكمة البالغة، إن الله لا يغير ما يقوم من عزة وسلطان ورفاهية وخفض عيش وأمن وراحة حتى يغير أولئك القوم ما بأنفسهم من نور العقل وصحة الفكر، وإشراق البصيرة، والاعتبار بأفعال الله في الأمم السابقة، والتدبر في أحوال الذين حادوا عن صراط الله فهلكوا وحل بهم الدمار ثم الفناء لعدولهم عن سنة العدل، وخروجهم عن طريق البصيرة والحكمة، حادوا عن الاستقامة في الرأي، والصدق في القول، والسلامة في الصدر، والعفة عن الشهوات، والحمية على الحق، والقيام بنصره، والتعاون على حمايته، خذلوا العدل ولم يجمعوا همهم على إعلاء كلمتهم، واتبعوا الأهواء الباطلة، وانكبوا على الشهوات الفانية وأتوا عظام المنكرات، خارت عزائمهم، فشحوا ببذل مهجهم في حفظ السنن العادلة، واختاروا الحياة في الباطل على الموت في نصره الحق، فأخذهم الله بذنوبهم وجعلهم عبرة للمعتبرين.

«هكذا جعل الله بقاء الأمم ونماها في التحلى بالفضائل التي أشرنا إليها، وجعل هلاكها ودمارها في التخلي عنها، سنة ثابتة

لا تختلف باختلاف الأمم، ولا تتبدل بتبدل الأجيال، كسنته تعالى في الخلق والإيجاد وتقدير الأرزاق، وتحديد الآجال. «علينا أن نرجع إلى قلوبنا، ونمتحن مداركنا، ونسبر أخلاقنا، ونلاحظ مسالك سيرنا، لنعلم هل نحن على سيرة الذين سبقونا بالإيمان؟ هل نحن نقتفى أثر السلف الصالح؟ هل غير الله ما بنا قبل أن نغير ما بأنفسنا، وخالف فينا حكمه، وبذل في أمرنا سنته؟ حاشاه وتعالى عما يصفون، بل صدقنا الله وعده، حتى إذا فشلنا وتنازعنا في الأمر وعصيناه من بعد ما أدى أسلافنا ما يحبون، وأعجبتنا كثرتنا فلم تغن عنا شيئاً، فبدل عزنا بالذل، وسمونا بالانحطاط، وغنانا بالفقر، وسيادتنا بالعبودية.

نبذنا أوامر الله ظهرياً، وتخاذلنا عن نصره، فجازانا بسوء أعمالنا، ولم يبق لنا سبيل إلى النجاة سوى التوبة والإنابة إليه. كيف لا نلوم أنفسنا ونحن نرى الأجانب عنا يفتصبون ديارنا ويستذلون أهلها، ويسفكون دماء الأبرياء من إخواننا، ولا نرى في أحد منا حراكاً؟

«هذا العدد الوافر، والسواد الأعظم من هذه الملة لا يبذلون في الدفاع عن أوطانهم وأنفسهم شيئاً من فضول أموالهم، يستحبون الحياة الدنيا على الآخرة، كل واحد منهم يود يعيش ألف سنة، وإن كان غذاؤه الذلة وكساؤه المسكنة، ومسكنه الهوان.

تفرقت كلمتنا شرقاً وغرباً، وكاد يقطع ما بيننا، لا يحن أخ لأخيه، ولا يهتم جار بشأن جاره، ولا يرقب أحدنا في الآخر

إِلَّا وَلَا زِمَةٌ، وَلَا نَحْتَرِمُ شُعَائِرَ دِينِنَا، وَلَا نَدَافِعُ عَنْ حَوَازِئِهِ، وَلَا نَعُزُّهُ بِمَا نَبْذُلُ مِنْ أَمْوَالِنَا وَأَرْوَاحِنَا حَسْبِمَا أَمَرْنَا.

«أَيَحْسَبُ اللَّابِسُونَ لِبَاسَ الْمُؤْمِنِينَ أَنَّ اللَّهَ يَرْضَى مِنْهُمْ بِمَا يَظْهَرُ عَلَى الْأَلْسِنَةِ، وَلَا يَمَسُّ سَوَادَ الْقُلُوبِ؟ هَلْ يَرْضَى اللَّهُ مِنْهُمْ بِأَن يَعْبُدُوهُ عَلَى حَرْفٍ؟ فَإِنْ أَصَابَهُمْ خَيْرٌ أَطْمَأَنُّوا بِهِ، وَإِنْ أَصَابَتْهُمْ فِتْنَةٌ انْقَلَبُوا عَلَى وُجُوهِهِمْ خَسِرُوا الدُّنْيَا وَالْآخِرَةَ؟ هَلْ ظَنُّوا أَنَّ لَا يَبْتَلَى اللَّهُ مَا فِي صُدُورِهِمْ، وَلَا يَمْحَصُ مَا فِي قُلُوبِهِمْ؟ أَلَا يَعْلَمُونَ أَنَّ اللَّهَ لَا يَذَرُ الْمُؤْمِنِينَ عَلَى مَا هُمْ عَلَيْهِ حَتَّى يُمِيزَ الْخَبِيثَ مِنَ الطَّيِّبِ؟ هَلْ نَسُوا أَنَّ اللَّهَ اشْتَرَى مِنَ الْمُؤْمِنِينَ أَنْفُسَهُمْ وَأَمْوَالَهُمْ لِلْقِيَامِ بِنَصْرِهِ وَإِعْلَاءِ كَلِمَتِهِ لَا يَبْخُلُونَ فِي سَبِيلِهِ بِحَالٍ، وَلَا يَشْحُونَ بِنَفْسٍ؟ فَهَلْ لِمُؤْمِنٍ بَعْدَ هَذَا أَنْ يَزْعِمَ نَفْسَهُ مُؤْمِنًا وَهُوَ لَمْ يَخُطْ خُطْوَةً فِي سَبِيلِ الْإِيمَانِ، لَا بِمَالِهِ وَلَا بِرُوحِهِ؟

«إِنَّمَا الْمُؤْمِنُونَ هُمُ الَّذِينَ إِذَا قِيلَ لَهُمُ النَّاسُ: إِنَّ النَّاسَ قَدْ جَمَعُوا لَكُمْ فَاخْشَوْهُمْ لَا يَزِيدُهُمْ ذَلِكَ إِلَّا إِيمَانًا وَثَبَاتًا، وَيَقُولُونَ فِي إِقْدَامِهِمْ: حَسْبُنَا اللَّهُ وَنِعْمَ الْوَكِيلُ، وَكَيْفَ يَخْشَى الْمَوْتَ مُؤْمِنٌ وَهُوَ يَعْلَمُ أَنَّ الْمَقْتُولَ فِي سَبِيلِ اللَّهِ حَيٌّ يَرْزُقُ عِنْدَ رَبِّهِ؟ مِمَّتَعٌ بِالسَّعَادَةِ الْأَبَدِيَّةِ فِي نِعْمَةٍ مِنَ اللَّهِ وَرِضْوَانٍ؟ كَيْفَ يَخَافُ مُؤْمِنٌ مِنْ غَيْرِ اللَّهِ، وَاللَّهُ يَقُولُ ﴿فَلَا تَخَافُوهُمْ وَخَافُوا اللَّهَ إِنْ كُنْتُمْ مُؤْمِنِينَ﴾ [سُورَةُ آلِ عِمْرَانَ: آيَةُ ١٧٥].

«فَلْيَنْظُرْ كُلٌّ إِلَى نَفْسِهِ وَلَا يَتَّبِعْ وَسَاوِسَ الشَّيْطَانِ، وَلْيَمْتَحِنْ كُلُّ وَاحِدٍ قَلْبَهُ قَبْلَ أَنْ يَأْتِيَ يَوْمٌ لَا تَنْفَعُ خَلَّةٌ وَلَا شَفَاعَةٌ، وَلْيَطْبِقَ بَيْنَ

صفاته وبين ما وصف الله به المؤمنين، وما جعله من خصائص الإيمان، فلو فعل كل منا ذلك لرأينا عدل الله فينا واهتدينا.

يا سبحان الله، إن هذه أمتنا أمة واحدة، والعمل في صيانتها من الأعداء أهم فرض من فروض الدين عند حصول الاعتداء، يثبت ذلك نص الكتاب العزيز، وإجماع الأمة سلفاً وخلفاً، فما لنا نرى الأجانب يصلون على البلاد الإسلامية صولة بعد صولة، ويستولون عليها دولة بعد دولة، والمتسمون بسمة الإيمان آهلون بكل أرض، متمكنون بكل قطر، ولا تأخذهم على الدين نكرة، ولا تستفزهم للدفاع عنه حمية؟ ألا يا أهل القرآن لستم على شيء حتى تقيموا القرآن، وتعملوا بما فيه من الأوامر والنواهي، وتتخذوه إماماً لكم في جميع أعمالكم مع مراعاة الحكم في العمل كما كان سلفكم الصالح.

ألا يا أهل القرآن هذا كتابكم فاقراءوا منه ﴿فَإِذَا أَنْزَلَتْ سُورَةٌ مُحْكَمَةٌ وَذُكِرَ فِيهَا الْقِتَالُ رَأَيْتَ الَّذِينَ فِي قُلُوبِهِمْ مَرَضٌ يَنْظُرُونَ إِلَيْكَ نَظَرَ الْمَغْشَىٰ عَلَيْهِ مِنَ الْمَوْتِ﴾ [سورة محمد: آية ٢٠].

ألا تعلمون فيمن نزلت هذه الآية؟ نزلت في وصف من لا إيمان لهم. هل يسر مؤمننا أن يتناوله هذا الوصف المشار إليه بالآية الكريمة، أو غر كثير من المدعين للإيمان ما زين لهم من سوء أعمالهم، وما حسنته لديهم أهواؤهم؟ ﴿أَفَلَا يَتَذَكَّرُونَ الْقُرْآنَ أَمْ عَلَىٰ قُلُوبٍ أَقْفَالُهَا﴾ [سورة محمد: آية ٢٤].

«أقول ولا أخشى نكيراً: لا يمس الإيمان قلب شخص إلا ويكون أول أعماله تقديم ماله وروحه في سبيل الإيمان، لا يراعى في ذلك عذراً ولا تعلقة، وكل اعتذار في العقود عن نصرته الله فهو آية النفاق وعلامة البعد عن الله.

وها نحن نرى الإنجليز دخلوا أرض مصر وأخذوا يجولون في أطرافها ويمهدون السبل لامتلاكها، ومع ذلك لا نرى من أهلها إقداماً فعلياً لمصادمة القوة الإنجليزية، مع أن كل واحد منهم يزعم نفسه في أعلى درجات الإيمان، ويزيد المتعجب عجباً أن مصر يسكنها من المسلمين أقوام مختلفو الشعوب والأجناس، ألا يوجد «حلبى» يكون آية لما كان عليه أسلافنا ودليلاً على أن تلك الروح الطيبة لم تنزع منا أو الغيرة والحمية وشهامة الإيمان لم يزل بها مقام من نفوسنا. لا ريب عندنا أن أية حركة جزئية كانت أو كلية في أى قطر من الأقطار التى لها تعلق بحكومة الإنجليز يوجب إحباط أعمالها وتنكيس أعلامها وخيبة آمالها.

أما لو فاتت المسلمين هذه الربة التى يعانى الإنجليز ما يعانون فيها فليستروا وجوههم بقناع الخجل ولا يغشوا أنفسهم بدعوى الإيمان واتباع القرآن فإنما هى ألفاظ على طرف اللسان لا تحكى عن عقيدة فى الجنان.

«مع هذا كله نقول: إن الخير فى هذه الأمة إلى يوم القيامة كما جاءنا به نبأ النبوة، وهذا الانحراف الذى نراه اليوم نرجو أن يكون

عارضاً يزول، ولو قام العلماء الأتقياء وأدوا ما عليهم من النصيحة لله ولرسوله وللمؤمنين، وأحيوا روح القرآن، وذكروا المؤمنين بمعانيه الشريفة، واستلقتهم إلى عهد الله الذي لا يخلف، لرأيت الحق يسمو والباطل يسفل ولرأيت نوراً يبهر الأبصار، وأعمالاً تحار فيها الأفكار، وأن الحركة التي نحسها من نفوس المسلمين في أغلب الأقطار هذه الأيام تبشرنا بأن الله قد أعد النفوس لصيحة حق يجمع بها كلمة المسلمين، ويوجد بها بين جميع الموحدين، ونرجو أن يكون العمل قريباً، فإن فعل المسلمون وأجمعوا أمرهم للقيام بما أوجب الله عليهم، صحت لهم الأوبة، ونصحت منهم التوبة، وعفا الله عنهم، والله ذو فضل على المؤمنين، فعلى العلماء أن يسارعوا إلى هذا الخير، وهو الخير كله: جمع كلمة المسلمين، والفضل كل الفضل لمن يبدأ منهم بالعمل ﴿مَنْ يَهْدِ اللَّهُ فَهُوَ الْمُهْتَدِ وَمَنْ يُضِلِّ فَلَنْ يَحْدِلَهُ﴾ وَلِيَا مُرَشِدًا ﴿١٧﴾ [سورة الكهف: آية ١٧].

الوهم

من مقالة نشرت في العدد نفسه:

«ألا قاتل الله الوهم. الوهم طوراً يكون مرآة المزعجات ومجلى المفزعات، وطوراً يكون ممثلاً للمسرات حاكياً للمنغصات، وهو في جميع أطواره حجاب الحقيقة وغشاء على عين البصيرة، لكن له سلطان على الإرادة وحكم على العزيمة، فهو مجلبة الشر ومنفاة الخير.

الوهم يمثل الضعيف قويًا والقريب بعيدًا والمأمن مخافة والموثل مهلكًا، الوهم يذهل الواهم عن نفسه ويصرفه عن حسه، يمثل الموجود معدومًا والمعدوم موجودًا، الوهم فى كون غير موجود وعالم غير مشهود يخبط فيه خبط المصروع، لا يدري ماذا أدركه وماذا تركه، الوهم روح خبيث يلبس النفس الإنسانية وهى فى ظلال الجهل، إذا خفيت الحقائق تحكمت الأوهام وتسلطت على الإرادات فتقود الواهمين إلى بيداء الضلالة، فيخبطون فى مجاهل لا يهتدون إلى سبيل ولا يستقيمون على طريق.

«كان الإنجليز أمة مجتمعة القوى مستكملة العدد مستعدة للفتوحات، وذلك فى زمان بليت فيه الأمم الشرقية بتفريق الكلمة واختلاف الأهواء، وحجبت بالجهل عن معرفة أحوال الغربيين وصنائعهم وعوائدهم، فكان الشرقيون يعدون كل غريبة معجزة، وكل بديع من الاختراع سحرًا وكرامة، فانتهز الإنجليز تلك الفرصة واندفعوا إلى الشرق وبسطوا سلطتهم على غالب أرجائه، وما دهموا سكانه إلا ببعض غرائب الصنعة الأوربية التى أثارت فيهم خواطر الأوهام، ثم زاد الوهم قوة ما نصبه الإنجليز من حبال الحيلة والمكر، حتى خلبوا قلوب المساكين وأذهلوهم عما فى أيديهم بل أخذوهم عن عقولهم وخطرات قلوبهم، فسلبوا أموالهم وانتزعوا منهم أراضيهم وأجلوهم عن أملاكهم، فاستغنت الأمة الإنجليزية بما سلبت، وأثرت بما نهبت، وترفعت بما ملكت، واليوم تراها

حاكمة على أقطار واسعة وأنحاء شاسعة وقواها منقسمة على تلك الأقطار متوزعة فيها، فلا ترى فى كل إيالة من إيالاتها الشرقية إلا نزرًا من العدد والعدد، وهى فى جميعها ضعيفة واهنة لا تستطيع ذودًا ولا دفاعًا، وإن أخف حركة فى تلك الأنحاء توجب زعزعة فى تلك القوة أو هدمها بالمرة، وقد ظهر هذا الأمر على أنفـس الأمة الإنجليزية، فهى دائـمًا فى رجفة على أملاكها فى خيفة من تمزقها وضياعها، تتوجس من كل حادثة فى العالم وتقلق لأية حركة تحدث فى الوجود، وكل ملمة تلم بالشرق أو الغرب توجب بحدوثها زلزلة فى قوى الإنجليز المتوزعة فى الأنحاء الضعيفة فى جميع الأرجاء.

«ومع هذا كله نرى الأمر لم يزل خفيًا على الشرقيين محجوبًا عنهم بحجاب الوهم.

يمثل الوهم لكل شرقى أن الإنجليز على ما كانوا عليه فى ماضى زمانهم، فمثل الشرقيين مع الإنجليز كمثل مار فى مغارة يرى بها جثة أسد مطروحة على طريقة فاقدة الحياة عديمة الحراك فيتوهمها سبعًا ضارياً ومفترسًا قويًا، فينكب عن الطريق وهماً وريبة بدون تحقيق لما تخوف منه، يرتعد ويسقط ويموت خوفًا أو يضل بعد ذلك عن الجادة وتشتبه عليه مسالك الوصول إلى غايته، وربما صادف مهلكة فى ضلاله ومتلفة فى غيه، بل لا نخطئ إن قلنا إن هذا الوهم كان متسلطاً على الغربيين كما هو متسلط

على الشرقيين، فالأوروبيون كانوا ينظرون إلى إنجلترا في أملاكها البعيدة كما ينظرون إليها في جزائر بريطانيا، وكانت حكومة إنجلترا متحصنة ممتنعة في هذه القبة الوهمية متربعة على عرش هذه العظمة الخيالية، يحس الإنجليز بضعف قوتهم فيجتهدون دائماً في ستره ولا ستار أكثف من الوهم، ولهذا نراهم في كل حادثة يجلبون ويصيحون ويزأرون ليثيروا بالضوء هواجس الأوهام فتحول أنظار الناظرين، وتغشى بصائر المستبصرين، فتحول دون استطلاع الحقيقة، وإلا فقليل من الالتفات يكشفها فتقوم قيامة الخراب على الإنجليز.

«ذهب الإنجليز إلى الهند في قوى مجتمعة، وتسابقوا مع الفرنسيين وهولاندا والبرتغال في مدن الأراضي الهندية الواسعة، فحازوا في هذه المباراة قصب السبق بما امتازوا به من الدهاء والمكر، وبما ساعدهم على ذلك من غفلة الهنديين لذلك العهد، أو طيب قلوبهم، فمالَت النفوس إلى الإنجليز اغتراراً وتغلبوا على تلك البلاد، واستقلوا بأمرها شيئاً فشيئاً وما أبقوا لغيرهم من الدول إلا مضائق من الأرض لا تذكر، وأول ما استمالوا به القلوب السالمة قولهم إننا نريد تخليصكم من هذه الدول الظالمة (فرنسا وهولاندا والبرتغال) فإنها تريد التسلط على ممالككم، أما نحن (الإنجليز) فلا نريد إلا تحريركم واستقلالكم.

ثم إنا نرى للإنجليز الآن في الهند الأصلية والهند الصينية والبرمان^(١) سلطة على نحو مائتين وخمسين مليوناً من النفوس جميعها كاره لتلك السلطة الإنجليزية طالب للتخلص منها بفضل أية سلطة ظالمة كانت أو عادلة ، كأنما يتصور كل واحد من أفراد تلك الأمم أنه لا توجد حكومة في العالم تبلغ في ظلمها مبلغ الإنجليز ولا تصل إلى ما وصل إليه الإنجليز في الكبرياء والجبروت ، ولكن مع هذه البغضاء الآخذة بقلوب أولئك الرعايا ، ومع سعة ديارهم وتباعد أرجائها وشدة ميلهم للتخلص من تلك السلطة الظالمة ، لا يوجد فيهم قوة لقهرهم على الخضوع لتلك الحكومة المبغوضة إلا خمسون ألف جندي إنجليزي ، مع أنه يوجد من الممالك الصغيرة التي لها نوع من الاستقلال وتخشى زوال ما بقي لها ما لو جمعت قواها لبلغت أزيد من ثلاثمائة ألف جندي ، هذا فضلاً عما يمكنه حمل السلاح من أهالي البلاد التي دخلت في الحكومة الإنجليزية وزال استقلالها بالمرة ، فلولا الوهم الذي استولى على المشاعر والحواس حتى أذهلها عما بين يديها بل عما هو موجود فيها ما بقيت هذه النفوس الكثيرة العدد الفائقة القوة في قبضه قوم ضعاف يسومونهم عذاب الذل والهوان ، ولو لمح أولئك المساكين أنفسهم لمحة اعتبار وأدركوا ما أتاهم الله من القوة الطبيعية ونظروا إلى ضعف الإنجليز في الحالة الحاضرة لرأوا موثلاً للخلاص بين أيديهم وملجأ النجاة تحت أرجلهم وعلموا أن استقلالهم لأنفسهم

وبلادهم لا يحتاج إلى تجشم تعب ولا تكلف مشقة، ولا يدعو إلى بذل أموال وافرة ولا سفك دماء غزيرة.

«يوجد في الدول الأوروبية من يهاب دولة الإنجليز اعتباراً لما في سلطتها من الممالك الواسعة والأمم العظيمة مما لم يبلغ عدة رعية دولة من الدول ويقيس شأنها وقوتها في تلك الأطراف القاصية بما يراه في جزائر بريطانيا، ويظن أن لها قدرة على الدفاع عن تلك الممالك تساوى قدرتها عليه في بريطانيا أو تقترب منها، ولم يلتفت إلى أن جسم الإنجليز قد مد في الطول والعرض إلى حد لو حصلت فيه أدنى هزة لتقطعت أوصاله (رق حتى انقطع)، تفرقت قواهم في بسيط الأرض حتى لم تبق لهم في موضع قوة، ورعاياهم في كل صقع في ضجر لا مزيد عليه، يترقبون في كل آن زحفاً من خارج يعينهم على ما يقصدون من النكاية بحكامهم الظالمين.

لو التفتت تلك الدولة التي تهاب إنجلترا إلى حقيقة الأمر لما احتاجت في معارضتها ومنازلتها إلى تدبر ومشورة، فقد وصل الأمر من الظهور إلى حد لا يحتاج إلى دقة الفكر لولا حجاب الوهم، قاتل الله الوهم».

التنبية إلى مقاصد الإنجليز

كتبت في آخر عدد ظهر من العروة الوثقى (العدد الثامن عشر) الصادر في ٢٦ ذى الحجة سنة ١٣٠١ هـ (١٦ أكتوبر سنة ١٨٨٤ م)

مقالة بعنوان (عماء بعض الناس فى مصر أو تعاميتهم عن مقاصد الإنجليز) وجهت فيها الخطاب إلى بعض من خدعوا فى وعودهم. قالت ضمن ما قالت:

«ظهرت مقاصد الإنجليز وانكشفت مضمراتهم، وإن كان بعض الغفل فى تلك البلاد المنكوبة الحظ (لا نريد نوبار باشا فإنه ضارب فى طريقه ذاهب فى مقاصده) يتزلف للإنجليز بكل ما يمكنه لينال بهم ما أشرنا إليه مراراً، تسول لهم أنفسهم إما جهلاً وإما طمعاً، أن يميلوا مع ربح الحكومة الإنجليزية لأنهم يظنون أنها لا تقصد بالبلاد المصرية إلا خيراً، فإذا فاض الخير فى البلاد وشملت الراحة جميع أنحاء انجلت العساكر الإنجليزية عنها كما جاءت إليها ورجعت إلى بلادهم.

«والعجب من هؤلاء المغرورين كيف لم يعتبروا بحركات اللورد نورث بروك يتجول فى البلاد المصرية ويستدعى إليه العمدة والمشايخ ويذاكرهم فيما يريد طوراً بالسر وآخر بالعلن، ويجاذبهم أطراف الأحاديث فيما يمكن أن يتخذ وسيلة لتمكين حكومته من الولاية على تلك البلاد، أما كان يكفى هذا السير لدرك الحقيقة؟ فيم يعلل الغافلون أنفسهم وأى أوهام تخيل لهم ما يظنون؟ ألم يكشف الغطاء عن نية السوء سؤال اللورد نورث بروك للشيخ العباسى المهدي شيخ الجامع الأزهر^(١) ومفتى القاهرة حيث افتتح الكلام

(١) هو الشيخ محمد العباسى المهدي شيخ الجامع الأزهر ومفتى الديار المصرية صاحب الفتاوى الهدية.

معه بقوله : ماذا تعلم من أفكار الأهالى لو أردنا (نحن الإنجليز أن نديم الإقامة فى البلاد؟ فلو لم يكن لدولة الإنجليز عزم على تملك وادى النيل فكيف كان هذا السياسى الداهية يبتدر شيخاً من أجل المشايخ وأعلامهم مقاماً فى القطر المصرى بهذا السؤال مع أن أقل ما فيه إثارة الظنون وإحداث الريب؟! .

أجابه حضرة الشيخ بما يفيد نفرة القلوب من بقاء الإنجليز فى معاهد مصر ، فاستدرك اللورد ما فرط منه بقوله إنا لا نريد البقاء ، ولكن كان استدراكه مناقضاً لما دل عليه أول سؤاله وما الإنكار إلا خديعة لا تخفى على الصبيان فضلاً عن الراشدين ، يريد اللورد بهذه المحاولات أن يستكنه مضمرات القلوب ليتبين له ضروب السير إلى ما يقصد من التسلط على أرض مصر حتى إذا سد فى وجهه باب حاول قرع باب آخر» .

«أما آن لهؤلاء المخدوعين أن يرجعوا لأنفسهم ويمدوا نظر الانتقاد لحركات هذا اللورد ، أى إصلاح يقصده اللورد من طرد العساكر المصرية وإلغاء كل ما يسمى جنداً مصرياً ومحو هذا الاسم من دفاتر الحكومة المصرية؟ إن اللورد يلح بكل اهتمام على استبدال الجند المصرى بأعوان الشرطة والخفر المسمى بالضباطة . ما هذا الاهتمام إن لم يكن من قصده تمهيد الطرق للتسلط التام على مصر؟ هذا سبيل سلكه الإنجليز فى جميع فتوحاتهم كما نبهنا عليه

مرارًا وأن هذا الكيس الداهية الإنجليزي لا يحيد عنه بعد ما سلكه أسلافه قبله وقفاهم عليه عندما كان حكامار الهند وجنوا ثماره، يجتهد بما فى وسعه لطرد العساكر المصرية وإبدالهم بالضابطة ليقترح بعد أيام تبديل رجال الضابطة المصريين بأقوام من الجيوش الإنجليزية البريطانية أو الهندية تعلقا بأخلاق المصريين وعدم أهليتهم للخدمة النظامية، وعجزهم عن القيام بوظائف الضبط وصيانة الراحة، وبذلك يجرد الحكومة من جميع قواها وتكون السلطة الإنجليزية سائدة فى جميع الجهات بلا معارض لها من طرف الحكومة المحلية».

احتجاب العروة الوثقى

احتجبت جريدة العروة الوثقى بعد صدور العدد الثامن عشر فى ٢٦ ذى الحجة لسنة ١٣٠١هـ (١٦ أكتوبر سنة ١٨٨٤م) فكان هذا العدد آخر ما صدر فيها، وكان أول عدد قد ظهر فى ١٣ مارس سنة ١٨٨٤م. فكانها استمرت فى الظهور سبعة أشهر.

ويبدو أن تهاون الشرقيين فى الإقبال عليها وإمدادها بالعون والتأييد كان السبب الأول لاحتجابها، وكان لمحاربة الإنجليزية أثر كبير فى احتجابها، فقد منعت دخولها إلى مصر والهند كما سلف القول، فالأمم الشرقية والسياسة البريطانية يتحملان معا تبعة وقف هذه الصحيفة التى كانت أقوى صرخة أيقظت النائمين

ونبهت الغافلين، ومع قصر المدة التي عاشتها، فإنها عملت في بعث الشرق أكثر مما عملت صحف أخرى في عدة سنين، ولقد ظل أثرها بعد احتجاجها باقياً مدوياً في الأذهان كلما توالى الأيام والأعوام، ولا ريب أن للحكيم الأفغانى والأستاذ الإمام الفضل الأكبر فيما بلغته هذه الصحيفة من المكانة الرفيعة والأثر الخالد في نفوس الشرقيين جميعاً.

انفصل الحكيمان

بعد أن توقفت جريدة العروة الوثقى عن الصدور انفصل الحكيمان وعاد الأستاذ الإمام الشيخ محمد عبده إلى بيروت ثم إلى مصر سنة ١٨٨٩م (١٣٠٦هـ)، وانقطع عن الكفاح السياسى وانصرف إلى الإصلاح الدينى والاجتماعى، أما جمال الدين فاستمر على الكفاح السياسى إذ أنه يراه الأساس لنهضة الشرق.

ويبدو أن اختلاف الحكيمين فى هذا الصدد قد بدأ فى باريس فقد أشار الأستاذ الإمام على جمال الدين أن يذهب إلى مكان بعيد غير خاضع لسكان دولة تعرقل سيرهما، ثم ينشئان فيه مدرسة للزعماء ويختاران لها التلاميذ من نجباء الناشئين من الأقطار الإسلامية، ومن يتوسمان فيهم الخير، ثم يربيانهم على منهج قوي يختارانه، ويعدانهم للزعامة والإصلاح، ولكن جمال الدين لم يقبل هذا رأى وعده تراجعاً عن الكفاح السياسى وتثبيطاً للعزيمة، ورجح رأى جمال الدين مؤقتاً فأصدر الحكيمان جريدة العروة الوثقى، وبدا من

أسلوب الجريدة أن الأستاذ الإمام اقتنع برأى أستاذه، على أنه حين عاد إلى مصر سنة ١٨٨٩م رجع إلى فكرته التي أبدأها في باريس وانقطع إلى الإصلاح الاجتماعي والديني، وبلغ فيه الذروة، ولقد قلت في هذا الصدد سنة ١٩٢٧م في كتابي عن (الثورة العربية والاحتلال الإنجليزي) «ونقطة الضعف في شخصية (الأستاذ الإمام) هي تخلفه عن الكفاح السياسي، واختلافه في هذه الناحية مع أستاذه جمال الدين الأفغاني، ولقد بدأ انقطاعه عنه منذ عودته إلى مصر سنة ١٨٨٩م، فترك أستاذه يعاني متاعب الكفاح السياسي وآلامه ومراراته وكان من قبل عضده وساعده الأيمن، وإنك لتلمح تراخي الصلات بينهما - حتى الصلات الشخصية - منذ أن عاد إلى مصر حتى وفاة السيد جمال الدين من قراءة منتخبات الأستاذ الإمام^(١) فإنك لا تجد فيها رسالة واحدة كتبها إلى السيد في محنته ومنفاه، بل إن جمال الدين توفي سنة ١٨٩٧م فلا تجد للأستاذ الإمام كلمة في رثاء أستاذه الروحي والفلسفي وزميل جهاده في (العروة الوثقى). وهذه الناحية هي أثر من آثار الاحتلال»^(٢).

جمال الدين ورينان

جرت لجمال الدين في باريس أبحاث مع الفيلسوف الفرنسي أرنست رينان Ernest Renan في العلم والإسلام، فقد ألقى

(١) تاريخ الأستاذ الإمام للسيد محمد رشيد رضا الجزء الثاني.

(٢) الثورة العربية والاحتلال الإنجليزي ص ٥٤٢ الطبعة الأولى.

رينان في (السوربون) محاضرة في هذا الموضوع قال فيها: إن إنتاج الأمم غير العربية أكثر من إنتاج الأمم العربية، وإن التمدن أكثره من إنتاج الفرس وغيرهم دون العرب، وزعم أن الإسلام لا يشجع على العلم والفلسفة، والبحث الحر، وإن من اشتغل بالفلسفة من المسلمين اضطهد أو أحرقت كتبه، أو كان في حماية خليفة أو أمير من المؤمنين، وقد نشرت هذه المحاضرة في جريدة الديبا الفرنسية Journal des - Debats وكان ممن رد عليه رئيس البعثة المصرية بفرنسا حينذاك.

ورد جمال الدين على هذه المحاضرة، ونشر رده في جريدة الديبا، وخلاصة رده: أن ما ذكره رينان عن الإسلام ليس هو من طبيعته ونتيجة تعاليمه، بل من عمل بعض من اعتنقوا الإسلام في بعض العهود، وإن الاضطهاد الذي قال عنه رينان قد وقع مثله في الأديان الأخرى، فرؤساء الكنيسة الكاثوليكية لم يتركوا هذا السلاح حتى الآن، وأما عن قوله إن الإسلام لا يشجع العلم، فإن الكل يعلم أن الشعب العربى خرج من حال البداوة التى كان عليها قبل الإسلام وأخذ يسير فى التقدم العلمى والفكرى ويسير فى هذا المجال بسرعة لا تعادلها إلا سرعة فتوحاته السياسية، فتقدمت العلوم تقدما مدهشا بين العرب وفى كل البلاد التى انضمت لسيادتهم.

وقد أكبر رينان هذا الرد، والتقى به وتباحث وإياه فى الموضوع وأعجب رينان بعبقريته وسعة علمه وقوة حجته وقال عنه «كنت

أتمثل أمامي عندما كنت أخاطبه ابن سينا أو ابن رشد، أو واحداً
من أساطين الحكمة الشرقيين» وقال إن جمال الدين الأفغانى خير
دليل يمكن أن نسوقه على النظرية التى طالما أعلنها وهى أن قيمة
الأديان بقيمة من يعتنقها من الأجناس.